الدكتور زاهر عواض الألمعي

مع المفسرين والمستشرقين

في

زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش

دراسة تحليلية


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الرابعة
١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م

مقـدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام عَلَى من لا نبى بعده.. وبعد: فإن صلتى بهذا الموضوع ترجع إلى أكثر من خمس سنوات تقريباً، عندما دار الحديث فى جلسة أدبية فكرية.. .. تضم عددا من ذوى الاتجاهات المختلفة. تكلم أحد الحاضرين فتطرق في حديثه إلى النزعة البشرية ذات الميول والعاطفة، وأن سلطانها قد يعصف بالشخصية القوية عندما يعرض لها منظر خّلاب، أو تستهويها نفحة ساحرة، وأن هذه النزعة البشرية لا يملك ردها كبارالأنبياء مثل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وسلم مع زينب، وداود عليه السلام مع زوجة أوريا.. وكان الحديث فى البداية يدور في موضوعات متنوعة.. .. وكان النقاش يجرى في بعض المفاهيم فى جوٍّ من الهدوء والموضوعية. فلما امتد الحديث إلى ساحة الأنبياء وتناول أمراً يتعلق بعصمتهم وكرامتهم لم أجد بُدًّا من الرد بقوة. وتقاطعنا الحديث وارتفع صوت أحد الحاضرين قائلا: أأنت أعلم بأحوال الأنبياء وتاريخ حياتهم من ابن جرير الطبرى؟ فدهشت لهذا السؤال حقا، وقلت: لا، بل ابن جرير الطبرى أعلم، ولا داعى للموازنة بينى وبين هذا العملاق، فهو إمام المفسرين ثم لم أجد هذا الجواب كافيا فذهبت ألومه وألوم نفسى على السؤال والجواب معا، وأقول كما قال الشاعر:

ألــم تر أن السيــف ينـــقص قدره
إذا قيـل إن السيـف أمضى من العصا

فقال المتحدث: إذن ارجع إلى ما نقله ابن جرير الطبرى فى تفسيره فى قصة زواج النبى (ﷺ)من زينب وأسباب ذلك.. تجد أن الرسول (ﷺ)جاء يوما من الأيام إلى بيت زيد بن حارثة فلم يجده ووجد زوجته

زينب بنت جحش وهى فى زينتها فوقع حبها فى قلبه (ﷺ)...إلخ..

وقد ذكر الطبرى فى تاريخه هذه القصة كما ذكر أيضاً قصة داود مع زوجة أوريا وأنها أعجبته فأكمل بها المائه... إلخ..

وجميع المصادر التاريخية وكتب التفسير تحدثت عن هذا الموضوع فلا داعى لتجاهل الحقائق التاريخية.

وقد عجبت لذلك المنطق والتفكير بأن هذا الامر لم يكن فكرة مستحدثة ولا طعنا فى عصمة الأنبياء، وإنما هو نقل لما سطّر فى كتب التفسير والتاريخ قبل ألف سنة.

وتمشياً مع قواعد البحث لم أجد بُداًّ من السير على القاعدة القائلة«إن كنت ناقلا فالصحة وإن كنت مدعياً فالدليل» وقد أحالنى فى مراجعة الموضوع إلى عدة مصادر، كتفسير ابن جرير الطبرى وتاريخه، وتفسير البغوى، والكشاف للزمخشرى، وطبقات ابن سعد، وغيرها من مصادر التفسير والتاريخ.

وانتهت الجلسة وفى نفس شئ من الحَيْرةِ والدَّهْشَة. ذهبت أتابع الموضوع بالبحث والدراسة.

فاستعرضت معظم المصادر التاريخية وأمهات كتب السنة، واطلعت على مجموعة من كتب المستشرقين..

وحاولت دراسة الاسانيد التى نقلها ابن جرير الطبرى وغيره مما له صلة بهذا الموضوع في ضوء ما رسمه علماء الجرح والتعديل.

وخرجت من هذه الدراسة بفكرة واضحة المعالم عن الأخبار التى رويت فى زواج النبى (ﷺ)بزينب وأن معظمها دخيل على التراث الإسلامى، وقد تلقفها المستشرقون وعملوا على نشرها وترويجها. وكان ورود هذه الأخبار فى المصادر التاريخية فى التراث الإسلامى تكأة للحاقدين على الإسلام لكى يشوهّوا الحقائق التاريخية وينالوا من كرامة

رسول الإسلام محمد (ﷺ).

ولقد عشت مع الآيات الكريمة التى تحدثت عن زيد وزينب، وعن زواج النبى (ﷺ) بها، بعد أن طلقها زيد، كما هو واضح فى سورة الأحزاب، وحاولت تجنب جميع الروايات الواردة فى ذلك فى البداية. وقمت بدراسة نص الآية مرة بعد أخرى فلم أستطع أن أفهم منها ما يخالف نصها الصريح ومدلولها الواضح البين الذى سنبينه عند دراسة الآية، ولولا ما أدخله الضعفاء والمدلسون من مثل هذه الروايات الساقطة ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شئ مما يرمون إليه من دعوى حب النبى (ﷺ) لزينب وتأثره عند رؤيتها.

وقد جمعت كل ما توصلت إليه فى كتاب وسميته:
(مع المفسرين والمستشرقين فى زواج النبى (ﷺ) من زينب بنت جحش).

وهو دراسة تحليلية لأبعاد الموضوع من جوانبه المختلفة.

جمعت فى هذا الكتاب حصيلة طيبة من أقوال العلماء، وهى محاولة للوصول إلى الحقيقة صيانة لكرامة الأنبياء، وبياناً لعصمتهم كما دلت عليه قواعد الشريعة، ووقائع الأحداث.

والله أرجو أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم — فهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدكتور
زاهر بن عواض الألمعى
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
بالرياض



زواج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب ـــ بإيجاز ـــ فى صورته الصحيحة.

ظاهرة التبنى كانت شائعة بين العرب فى الجاهلية واستمرت فى أول الإسلام حتى أراد الله إلغاء تلك الظاهرة المضرة بكيان الأسر وما يتبعها من خلافات فى المواريث والنزاعات الأسرية، فأنزل الله تعالى فى إبطال التبنى قوله:

«ادعُوهم لآبَائِهِم هُوَ أَقْسَطُ عندَ اللهِ،..»[١] كما قصد الإسلام إذابة الفوارق الطبقية بين الناس وإقامة العلاقات الأسرية على أساسها الصحيح، فألهم الله نبيه (ﷺ) أن يخطب زينب بنت جحش ـــ وهى من أشراف قريش ـــ لمولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه، ووافقت زينب على ذلك لاعتبارات سنذكرها فيما بعد، فتزوجها زيد ومكثت عنده ما يقرب من سنة[٢]. وكان زواج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش بمنزلة التمهيد لإلغاء التبنى، كما كان كسراً لعنفوان النزعات الطبقية، ثم نشأت بينهما خلافات لم يطيقا معها تحمل الحياة الزوجية، وقد استشار زيد رسول الله (ﷺ) فى طلاق زينب وأوضح له بعض الأسباب الداعية إلى ذلك فأشار عليه رسول الله (ﷺ) بأن يمسك زوجه، علماً بأن الله تعالى قد أخبر رسوله عليه السلام بأن زينب ستكون من أزواجه بعد أن يطلقها زيد، ولكن رسول الله (ﷺ) كان يستحى من إظهار ذلك إذ لم يأمره الله بإظهاره، كما كان يخشى أن يقول المنافقون: تزوّج محمد بزوجة ابنه بالتبنى، وكان يرجو من الله تعالى أن يعفيه من هذا التكليف ولكن «كانَ أمرُ اللهِ مَفْعولاً».

(١)سورة الأحزاب الآية ٥

(٢)انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص٤٩١

ثم صمم زيد على مفارقة زوجته زينب فطلقها، وبعد انقضاء عدّتها تزوجها رسول الله (ﷺ) لحكمة تشريعية«لكى لايكونَ على المؤمنينَ حرج فى أَزْواجِ أَدْعِيائهم إذا قَضَوْا منهُنَّ وَطَراً وكان أمرُ اللهِ مفعولًا»

وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى كتابه العزيز فقال جل شأنه: «وإذْ تقولُ للَّذِى أَنْعَمَ الله عليه وأَنعمت عليه أَمْسِكْ عليكَ زوجَك واتَّق الله وتُخْفِى فى نفسك ما الله مُبْدِيهِ وتخشى الناسَ واللهُ أَحَقُّ أن تخشاه، فلما قَضَى زَيْدٌ منها وَطَراً زَوَّجْناكها لكيلا يكون على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وكانَ أمرُ اللهِ مَفْعُولًا»(١) .

وكان زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بزينب فى ذى القعدة من السنة الخامسة من الهجرة(٢) فى أشهر الأقوال، كما سنوضحة فيما بعد.

هذه لمحة سريعة عن زواج النبى (ﷺ) بزينب ؛ وسنتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل والبيان ان شاء الله.

أخطاء بعض المفسرين فى زواج النبى ﷺ بزينب:

نقل بعض المفسرين أخبارا فى أسباب زواج النبى (ﷺ)من زينب بنت جحش، منها الصحيح الذى يتفق مع نصوص القرآن الكريم وصحيح السنة، ومنها ما يتعارض مع القرآن الكريم ويتناقض مع الواقع التاريخى والمنطق العلمى الصحيح لِسير الأنبياء، وقد تساهل بعض المفسرين فى إثبات بعض الراويات البعيدة عن منطق الوقائع وروح الآيات القرآنية.

(١)الأحزاب آية ٣٧ (٢)طبقات ابن سعد ج٨ ص ٢١٨

ولقد أثار هذا الخلط فى الروايات مزاعم ينفر منها الحق ويأباها الواقع، ثم جاء خصوم الإسلام فتلقفوا هذا التخليط وضموه إلى مآخذهم التى يحاولون بها إثارة الغبار حول نزاهة رسول الله (ﷺ)، لقد دس المنافقون على زواج النبى (ﷺ)من زينب أباطيل كثيرة، ومن عجب أن سجَّل بعض المسلمين هذه الأباطيل فى كتبهم كقولهم: إن النبى (ﷺ) جاء إلى بيت زيد بن حارثة زوج زينب بنت جحش فلم يجده وعرضت عليه زينب أن يدخل فأبى وانصرف راجعا وهو يقول كلاما لم تفهم منه زينب سوى قوله:(سبحان مقلِّب القلوب).

فلما عاد زيد أخبرته بما كان فمشى إلى رسول الله (ﷺ)فقال له:

بلغنى يارسول الله أنك جئت إلى منزلى فهلا دخلت لَعَلَّ زينب أعجبتك فأفارقها؟ فقال له النبى (ﷺ):«أمسك عليك زوجك واتْق الله» لكن زيدا عجز عن إمساكها فطلقها، فتزوجها النبى (ﷺ) بعد أن استوفت عدتها.

وفى خبر آخر من أخبار القصاص أن النبى (ﷺ) أتى بيت زيد فرأى زينب جالسة وسط حجرتها تسحق طِيْباً، فلما نظر إليها قال:«سبحان خالق النور(١) ، تبارك الله أحسن الخالقين»، فرجع. فلما جاء زيد أخبرته الخبر فقال لها: لعلك وقعت فى قلب النبى (ﷺ) فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك فقالت: أخشى أن تطلقنى ولا يتزوجنى: فجاء زيد إلى رسول الله (ﷺ)فقال له: أريد أن أطلق زينب فأجابه بقوله:(أَمْسِكْ عَلَيكَ زوجَك واتَّقِ الله).

وهذه الأخبار وأمثالها مما يجب تنزيه النبى (ﷺ) عنها، ومن الغريب جداً، أن تَرِدَ هذه الروايات فى كتب الأئمة الأعلام، كابن جرير الطبرى، وابن سعد، والبغوى والرازى وغيرهم، وهى أخبار ساقطة

---

(١)انظر تفسير الطبرسى ج ٢٢مجلد ٦ ص ١٤٣

متهافتة سنداً ومتناً. ولكى تكون الحقائق واضحة جليّة فإننى سأورد بعض النصوص من هذه الروايات الدخيلة فى تفسير ابن جرير الطبرى وطبقات ابن سعد، تلك الروايات التى كانت تكأة للمبشرين والمستشرقين لبث سمومهم وأحقادهم على رسول الله (ﷺ)، ثم أعقّب على تلك الروايات بدراسة أسانيدها ونقدها حسب مادوّنه علماء الجرح والتعديل فى علوم الحديث.

وإليك ما رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره حيث قال رحمه الله عند قوله تعالى(أمْسِكْ عليك زوجَك واتق الله) ما نصه:

«وذلك أن زينب بنت جحش فيما ذُكِرَ رآها رسول الله (ﷺ)، فأعجبته وهى فى حبال مولاه فألقى فى نفس زيد كراهيتها لما علم الله مما وقع فى نفس نبيه ماوقع فأراد فراقها فذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) زيد فقال له رسول الله (ﷺ):«أمْسِكْ عليكَ زوجَك» وهو يحب أن تكون قد بانت منه لينكحها.

١ــ حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة(وإذْ تقولُ للذى أنعمَ الله عليه) وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام(وأنعمتَ عليه) أعتقه رسول الله (ﷺ)(أَمْسِكْ عليكَ زوجَك واتَّقِ اللهَ وتُخفى فى نفسك ما اللهُ مُبْدِيه) قال: كان يخفى : ودَّ أنه طلقها.

٢ــ حدثنى يونس قال أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد(كان النبى (ﷺ) قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته فخرج رسول الله (ﷺ)يوماً يريده وعلى الباب ستر من شعر فرفعت الريح الستر فانكشف، وهى فى حجرتها حاسرة فوقع إعجابها فى قلب النبى (ﷺ) فلما وقع ذلك كرِّهت إلى الآخر، فجاء فقال: يارسول الله إننى أريد أن أفارق صاحبتى قال: مالك أرابك منها شئ؟ قال: لا والله مارابنى منها شئ يارسول الله ولا رأيت إلَّا خيراً، فقال رسول الله (ﷺ):(أمْسِكْ عليك زوجَك واتق الله)، فذلك قوله تعالى:«وإذْ تقول

للذى أنعَمَ الله عليه وأنعمتَ عليه أمسكْ عليكَ زوجَك واتق الله وتُخفى فى نفسك ما الله مُبْدِيه» وتخفى فى نفسك إنْ فارقها تزوجتها.

٣ــ حدثنا خَلَّاد بن أسلم قال حدثنا بن عيينة عن على بن زيد ابن جدعان عن على بن الحسين قال: كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيه (ﷺ) أن زينب ستكون من أزواجه فلما أتاه زيد يشكوها قال أتق الله وأمسك عليك زوجَك؛ قال الله:(وتُخفى فى نفِسكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ) انتهى[١].

أما رواية ابن سعد فقد صدر بها حديثة عن زواج النبى (ﷺ)بزينب بعد أن أورد رواية قصيرة فى خطبتها على زيد بن حارثة، قال ابن سعد:

(أخبرنا محمد بن عمر قال حدثنى عبد الله بن عامر الأسلمى عن محمد بن يحيى بن حبان قال: جاء رسول الله (ﷺ)بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد إنما يقال له زيد بن محمد فربما فقده رسول الله (ﷺ) الساعة، فيقول: أين زيد؟ فجاء منزله يطلبه فلم يجده وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجته فُضُلًا[٢] فأعرض رسول الله (ﷺ) عنها فقالت: ليس هو ههُنا يارسول الله فادخل بأبى أنت وأمى، فأبى رسول الله (ﷺ)أن يدخل وإنما عجلت أن تلبس لما قيل لها: رسول الله (ﷺ)على الباب فوثبت عجلي فأعجبت رسول الله (ﷺ)فولّى وهو يهمهم بشئ لايكاد يفهم منه إلَّا سبحان مصرف القلوب.. الخ)[٣].

وقد أورد الطبرى فى تاريخه هذه القصة بسنده المرفوع إلى محمد بن يحي بن حبان[٤].

---

(١)تفسير الطبرى ج ٢٢ مجلد ٢٢ ــ ٢٥ ص ١٣ ط مصطفى الحلبى عام ١٣٧٣هـ.

(٢)أى متبذلة فى ثياب مهنها ؛يقال:تفضلت المرأة إذا لبست ثياب مهنتها، أو كانت فى ثوب واحد كما فى (النهاية) لابن الأثير ج ٣ ص ٤٥٦، ط عيسى الحلبى.

(٣)طبقات ابن سعد . ٨ص١٠١ بتصرف يسير.

(٤)انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٣

نقد الروايات التى أوردها ابن جرير الطبرى وابن سَعد

١ــ بالرجوع إلى السند الأول عند الطبرى وهو قوله: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة.. الخ.

نستطيع أن نرد هذا السند من وجهين:

الأول: أن الحديث مقطوع لأن السند انتهى إلى قتادة ولم يصرح بأن قتادة رواه عن أحد من الصحابة. ومثل هذه الأمور تحتاج فى قبولها إلى السند الصحيح المتصل.

الثانى: أن فى السند سعيد بن أبى عروبة وكان كثير التدليس[١] واختلط، وروايته عن قتادة معنعنة، والمحدثون يردون رواية المدلس إذا عنعنها لأنهم يعتبرون الرواية سقط منها بعض الرواة ما بين المدلس وشيخه الذى صرح باسمه فى السند، وإذا كان مجموعة كبيرة من المحدثين قد وثّقوا سعيد بن أبى عروبة فهذا التوثيق قبل أن يختلط؛ ولهذا قال أبو حاتم فيه: هو قبل أن يختلط ثقة، قال أبو داود: كان وكيع يقول: كنا ندخل على سعيد فنسمع، فما كان من صحيح حديثه أخذناه وما لم يكن صحيحاً طرحناه. وقال الأزدى: اختلط اختلاطاً قبيحاً، وقال النسائى: من سمع منه بعد الاختلاط فليس بشئ[٢] .

وبهذا يحكم على الرواية بعدم الثبوت.

٢ــ أما السند الثانى عند الطبرى وهو حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد...الخ.

فإن هذا السند يرد من وجوه ثلاثة:

---

(١)انظر تقريب التهذيب ج١ ص ٣٠٢

(٢)تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٦٤، ٦٥

الأول: أن ابن وهب المذكور هو عبد الله بن وهب المصرى كان مدلّساً؛ قال عنه ابن سعد: عبد الله بن وهب كان كثير العلم ثقة فيما قال حدثنا، وكان يدلس.

وقال النسائى: كان يتساهل فى الأخذ ولا بأس به.

وقال الساجى: صدوق ثقة وكان من العبّاد. وكان يتساهل فى السّماع لأن مذهب أهل بلده أن الإجازة عندهم جائزة، ويقول فيها حدثنى فلان [1]

على كل حال فقد وثّقه كثير من العلماء، فلا يقدح فى روايته التى صرح فيها بالتحديث: فأما ما لم يصرح فيها بالتحديث كهذه الرواية التى نحن بصدد الحديث عنها فإنها لا تقبل لاحتمال وجود بعض الرواة المجهولين فى السند.

الثانى: أن ابن زيد — وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوى ضعيف. وضّعفه الإمام أحمد، وقال البخارى وأبو حاتم: ضعَّفه على ابن المدينى جداً. وتكلم فى حديثه غير واحد من علماء الجرح والتعديل [2].

وقد عرفت أن عبد الله بن وهب المصرى أخذ هذا الحديث عن عبد الرحمن بن زيد هذا وهو على هذه الدرجة من الضعف فيكون السند غير صحيح، وسواء روى ابن وهب حديثه صراحة عن ابن زيد أو عنعنه فإن الرواية غير مقبولة لما تعرضت له من القوادح.

الثالث: أن السند منقطع ولم يتصل إلى أحد من الصحابة. ومثل هذا يكون رأياً شخصياً فى الرواية التاريخية ولا يقوم عليه بناء صحيح.

٣— أما السند الثالث وهو حدثنا خلَّاد بن أسلم قال حدثنا سفيان

---

(١)تهذيب التهذيب ج٦ ص ٨٣ — ٨٤

(٢)انظر طبقات المفسرين للداودى ج ١ ص ٢٤٥، وانظر تهذيب التهذيب ج٦ ص ١٧٨

ابن عيينة عن على بن زيد بن جدعان عن على بن الحسين.. الخ.

فإنه وإن كان فيه على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف[1] إلا أن الترمذى الحكيم قد أطنب فى تحسين هذه الرواية وقال: إنها من جواهر العلم المكنون[2].

ويمكن قبول هذه الرواية لأنها تتفق مع المنطق السليم فى سيرة سيد المرسلين (ﷺ).

واحسن من هذه الرواية ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق السدى ولفظه: (بلغنا أن هذه الآية ــ يعنى قوله تعالى «وتُخفْى فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ .. الخ» الآية ــ نزلت فى زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله (ﷺ) وكان رسول الله (ﷺ) أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله (ﷺ) فزوجها إياه ثم أعلم الله عز وجل نبيه (ﷺ) بعدُ أنها من أزواجه فكان يستحى أن يأمر زيدا بطلاقها وكان لايزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله (ﷺ) أن يمسك عليه زوجه وأن يتقى الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيدا).

وقد أثنى الحافظ ابن حجر رحمه الله فى فتح البارى[3] على رواية السدى هذه فقال: وقد أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السدى فساقها سياقا واضحاً حسناً، ثم عقّب على الرواية السابقة التى أثنى عليها الترمذى الحكيم، فقال: وكأنه ــ أى الترمذى الحكيم ــ لم يقف على تفسير السدى الذى أوردته وهو أوضح سياقا وأصح إسنادا إليه لضعف على بن زيد بن جدعان، ثم قال الحافظ بن حجر

(١)انظر طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٢٥٢ (٢)انظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٢٤

(٣) ج ٨ ص ٥٢٣ ــ ٥٢٤

رحمه الله:(ووردتْ آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها، والذى أوردته منها هو المعتمد)[1].

***

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٥٢٤

نقد روايات ابن سَعد

أما الطعن في الرواية التى أوردها ابن سعد فإنه يتأتى بأمور ثلاثة:ـــ

١ـــ أنها رواية مرسلة فمحمد بن يحي بن حبان تابعى مدنى فقيه يروى عن عمه واسع ورافع بن خديج وأنس وغيرهم، وروى عنه الزهرى، ويحيى بن سعيد الأنصارى، ومالك، والليث وآخرون، وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائة[١].

٢ـأن محمد بن عمر الواقدى الذى أخذ ابن سعد عنه هذه الرواية ليس مرضياً عند علماء الحديث، قال زكريا بن يحيى الساجى:.. محمد بن عمر الواقدى قاضى بغداد مُتَّهم.

وقال البخارى: الواقدى مدنى سكن بغداد متروك الحديث تركه أحمد وابن المبارك وابن نُمير ، وقال: أكذبه أحمد.

وقال يحيى بن معين: ضعيف ليس بشئ يقلب الحديث[٢].

٣ـــ أن عبد الله بن عامر الأسلمى الذى روى عنه محمد بن عمر ضعيف الحديث، قال عنه أحمد وأبو زرعة وأبو عاصم والنسائى: ضعيف، وقال أبو حاتم: متروك، وقال ابن معين: ضعيف ليس بشئ، وقال البخارى: يتكلمون فى حفظه، ذاهب الحديث، وقال ابن حبان: كان يقلب الاسانيد والمتون ويرفع المراسيل[٣].

وإذاً فلا تصح هذه الرواية لاسنداً ولا متنا، ولا يصح أن يشاد عليها بناء من الوهم أو الضلال يتطاول به على مقام النبوة[٤].

(١)انظر تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٥٠٨

(٢)تهذيب التهذيب ج٩ ص ٣٦٣، وانظر ميزان الاعتدال ج٣ ص ٦٦٢ ـــ ٦٦٦

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ج٥ ص ٢٧٥ ـــ ٢٧٩

(٤) انظر كتاب منهج السنة فى الزواج للدكتور/محمد الأحمدى أبو النور ص ٢٩٤

ولقد تناقل كثير من المفسرين والباحثين هذه الآثار المدخولة ودوّنها فى كتبهم جاعلين عهدة الصحة على الناقل الأول، فالإمام البغوى رحمه الله تعالى على جلالة قدره يورد فى تفسيره رواية منسوبة إلى ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى(وتُخفى فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ) قال: أى حب زينب وهى فى عصمة زيد[1].

وأورد فخر الدين الرازى فى تفسيره هذه الآثار ولم يردها[2]، كما ساقها أيضاً الزمخشرى فى تفسيره حيث قال ما نصه:

(أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) يعنى زينب بنت جحش رضى الله عنها وذلك أن الرسول (ﷺ) أبصرها بعد ما أنكحها زيداً فوقعت فى نفسه فقال: سبحان مقلب القلوب..إلخ.

وابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى لم يتحرر من هذه الروايات الدخيلة فى كتابه الكافى، أو الداء والدواء، حيث جاء فيه عند حديثه عن العشق ما نصه: وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين (ﷺ) نظر إلى زينب بنت جحش رضى الله عنها فقال: سبحان مقلب القلوب، وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فلما هم بطلاقها قال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك ثم قال: وهذا داود نبيّ الله عليه السلام كان تحته تسع وتسعون امرأة ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكمل بها المائة[3].

وأنت ترى أن هذا الكلام يخدش كرامة الأنبياء وأنه من الإسرائيليات التى يجب أن تطهر منها كتب الإسلام وأن يعاد النظر فى كثير منها وبخاصة ما يتعلق بعصمة الأنبياء وأمور العقائد الأساسية، ومن الإنصاف أن نبيّن رأى الإمام ابن القيم فى كتابه زاد المعاد لأنه

---

(١) تفسير البغوى على هامش تفسير الخازن ج ٥ ص ٢١٥

(٢) انظر تفسير فخر الدين الرازى ج٢٥ ص ٢١٢

(٣) الجواب الكافى ص ٢٦٤ ــ مطبعة أنصار السنة المحمدية.

يختلف تماماً عما دونه في كتابه الجواب الكافي حيث قال في(زاد المعاد) في علاج النبي (ﷺ) للعشق قال ما نصه:

«وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حق قدره من أنه ابتلى به في شأن زينب بنت جحش وأنه رآها فقال سبحان مقلب القلوب فأخذت بقلبه وجعل يقول لزيد أمسكها حتى أنزل الله عليه(٣٢ ــ ٣٣ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ). فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق وصنف بعضهم كتابا في العشق وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر فيه هذه الواقعة وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل وتحميله كلام الله ما لا يحتمله ونسبته رسول الله (ﷺ)إلى ما برأهُ اللهُ منه..» الخ [١].

فأنت ترى أن كلام ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد أحسن وهو مخالف لرأيه الذى أورده في الجواب الكافي، ويمكن الاعتماد على قوله في(زاد المعاد) لأنه أصح نسبة إليه. وقد يكون رأيه في هذه المسأله رأياً سابقاً أوردهُ في الجواب الكافي، ثم رجع في زاد المعاد عن ذلك ملتزما منهج التحقيق، ومهما يكن فإن الروايات المدخولة في قصة زواج النبي (ﷺ) بزينب لا تزال مبثوثة في كتب التفسير والسير يأخذ بها ذوو الغفلة من المسلمين ويجادل عنها من لا يعرف عصمة الأنبياء ولا يقيم للحقائق التاريخية وزنا، وربما أطلق بعض المُجّان في

(١)زاد المعاد ج ٤ ص ٢٦٦ طبع مؤسسة الرسالة.

وصف النبي (ﷺ) هذه الكلمة(النبى العاشق) فكأن زواج النبى (ﷺ) بزينب جاء نتيجة لغرام سابق فأسدلوا على هذه القصة ستاراً من الخيال وضروباً من التصورات التى تخدش كرامة النبوة وعصمة الأنبياء، وحاشا رسول الله (ﷺ)من ذلك الميول العاطفى. وسأبين الحقائق فى زواج النبى بزينب بنت جحش مُدْعمةً بالأدلة العقلية والنقلية إن شاء الله تعالى.

استغلال بعض المستشرقين لهذا:

دأب كثير من المستشرقين على تشوية الحقائق الإسلامية وتلقف الأخبار الضعيفة والموضوعة المبعثرة فى كتب التراث الإسلامى والعمل على إظهارها ونشرها، وبالرغم من أن المحققين من علماء الإسلام قد تصدوا لتلك الروايات وصنفوا الكتب والمجاميع فى الأحاديث الموضوعة فقد بقيت بعض الآثار من الإسرائيليات والأخبار الضعيفة متفرقة فى طيات الكتب.

وكانت رسالة الاستشراق والتبشير تفرض على المستشرقين والمبشرين محاربة الإسلام والنيل من قداسته، والحط من مكانة رسول الإسلام العظيم (ﷺ)عن طريق تلك الروايات الضعيفة أو المكذوبة، فلجأوا إلى تلمس الشبه وإثارة الشكوك. ولا ريب أن ما دّونه بعض المسلمين فى كتبهم من أخبار وقصص معظمها من الإسرائيليات، وما وضعه الوضاعون وتناقله القصاصون حتى راج بين الناس قد كلف علماء الإسلام المحققين ثمناً باهظاً من مؤونة البحث والتدقيق وتصنيف كتب الجرح والتعديل ليواجهوا تلك التيارات الزاحفة المدسوسة فى التراث الإسلامى.

وقد وضعوا، رحمهم الله تعالى، للباحثين قواعد البحث ومناهج التدقيق فى مصادر الأخبار وأحوال الرواة.

وإذا استعرضنا بعض ما كتبه المستشرقون حول زواج النبى (ﷺ)بزينب وجدنا كتاباتهم تميل إلى تصوير هذا الزواج بصورة سفاح الأقارب ـــ كما يسميه بعضهم ـــ وأفاضوا على القصة ضروباً من الخيال تعكس تأثُّرات محمد (ﷺ)عندما رأى زينب وكانت بيضاء جميلة وأطلقوا لأقلامهم العنان حتى صوّروا رسول الله (ﷺ)بالرجل الشهوانى الذى يستحوذ على قلبه وكيانه جمال النساء ومظاهر الزينة ومتع الحياة.

وأذكر على سبيل المثال بعض أقوال المستشرقين فيما يلى:

يقول المستشرق«إميل درمنغم» فى كتابه(حياة محمد) ترجمة عادل زعيتر يقول ما نصه:«شعر محمد بالعقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء... ودخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثة بعد الفراغ من غزوة بنى النضير وكان زيد فى ذلك اليوم غائبا عن بيته فوجد محمد نفسه تجاه زوجة زيد زينب بنت جحش التى كانت أجمل فتيات قومها. وكانت زينب هذه آنئذ سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها، فأثر هذا الجمال السافر الغض الفياض فى نفس النبى فقال: سبحان مقلب القلوب، ولم ينطق بغير هذه الكلمة وانصرف حالًا. قصت زينب ما رأت على زوجها زيد فارتبك كثيرا، وكان زيد المخلص لمحمد المنعم عليه يعلم مزاجه المتّقد وبَداَ الوضع محيّرإلى الغاية[١] ».

هكذا يقول المستشرق درمنغم. مع أنه يعتبر إلى حد كبير من المعتدلين فى الكتابة عن حياة محمد (ﷺ) إذا قورن بغيره من المستشرقين.

---

(١)حياة محمد لإميل درمنغم ترجمة عادل زعيتر ص ٢٩٩

ولا يقف الحد عند هذا فى تهجمات المستشرقين ونفث سمومهم فيما يتعلق بزواج الرسول (ﷺ) بل يتعدى إلى أبعد من ذلك فيتهمه بعضهم بأنه كانت له علاقات غير شرعية مع بعض النساء فيقول المستشرق«مونتجومرى وات» فى كتابه(محمد فى المدينة):«ونعلم من بعض الوثائق أن محمداً بالإضافة إلى زيجاته الشرعية واتصالاته بالجوارى كانت له علاقة مع نساء أخريات وذلك حسب النظام الأممى القديم» [١] .

ويقول«مونتجومرى وات» فى مكان آخر ما نصه:«وقد ذهبت ـــ أى زينب ـــ إلى المدينة مع إخوتها، وزوّجها محمد بالرغم عنها من ربيبه زيد بن حارثة وقد ذهب محمد فيما بعد حوالى السنة الرابعة للهجرة(٦٢٦م) إلى بيت زيد للتحدث إليه وكان زيد غائبا فشاهد زينب وهى عارية فأحبها كما يقولون لتوه فمضى وهو يقول لنفسه سبحان الله مقلب القلوب[٢] .

ويقول المستشرق الدكتور«غوستاف لوبون» فى كتابه(حضارة العرب) بعد ثنائه على محمد صلى الله عليه وسلم بصفاته الحميدة ما نصه: «وضعْف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء وهو الذى اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يخف محمد حبه فقد قال:(حُبِّب إلىّ من دنياكم ثلاث [٣] . الطيب والنساء وجعلت قرة

---

(١)محمد فى المدينة: ترجمة شعبان بركات ص ٤٣٤

(٢)المصدر السابق ص ٥٠٢

(٣) قال الحافظ العراقى فى أماليه:لفظ«ثلاث»، ليست فى شئ من كتب الحديث، وهى تفسد المعنى، وقال الزركشي: لم يرد فيه لفظ«ثلاث» وزيادتها مخلة للمعني، فإن الصلاة ليست من الدنيا. وقال ابن حجر فى تخريج الكشاف: لم يقع فى شئ من طرقه، وهى تفسد المعنى، إذ لم يذكر بعدها إلا الطيب والنساء، ثم إنه لم يضفها لنفسه، فما قال: أحب تحقيراً لأمرها، لأنه أبغض الناس فيها ، لا لأنها ليست من دنياه، بل من آخرته كما ظن، إذ كل مباح دنيوى ينقلب طاعة بالنية، فلم يبق لتخصيصه حينئذ وجه، ولم يقل: من هذه الدنيا، لأن كل واحد منهم ناظر إليها، وإن تفاوتوا فيه:وأما هو فلم يلتفت إلا إلى ما ترتب عليه مهم ديني محبب إليه. =

عينى فى الصلاة)ولم يبال محمد بسن المرأة التى يتزوجها؛ فتزوج عائشة وهى بنت عشر سنين وتزوج ميمونة وهى فى الحادية والخمسين من سنها وأطلق محمد العنان لهذا الحب حتى إنَّهُ رأى اتفاقا زوجة ابنه بالتبنى وهى عارية فوقع فى قلبه منها شئ فسرحها بعلها ليتزوجها محمد فاغتم المسلمون فأوحى إلى محمد بواسطة جبريل الذى كان يتصل به يوميا آيات تسوِّغ ذلك وانقلب الانتقاد إلى سكوت[1]...

وهذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق لأنها نغمة استشراقية مكشوفة وكتب المستشرقين مملوءة بهذه النزعات المنحرفة كما هو واضح فى أقوال موير، ومرجليوث، وأرفنج واشنطن، وسبرنجر، وغيرهم.

إن الحركة الاستشراقية تعمل بنشاط وجهد متصل فى سبيل بلوغ أهدافها أياً كانت وبأى لون من ألوان المظاهر الحركية وهى تملك من الوسائل ما تستطيع أن تظهر به أمام الناس بمظهر الباحث المتجرد الراغب في المعرفة،ونحن لا ننكر ما قدموه فى سبيل البحث العلمى وما أسهموا به فى نشر العلوم الإنسانية غير أنهم عندما يأتون للقضايا الإسلامية يخبطون فيها خبط عشواء ويقدِّمون لها تفسيرات تصطدم مع الحقائق الإسلامية الصحيحة وتخالف المنطق السليم الذى يتفق مع وقائع الأحداث ومجريات الأمور، من هنا نشأت الفجوة بين أرباب الفكر الإنسانى، وعليه فإنه لابد من الإنصاف والتجرد من الأهواء عند ما يعرض الباحث للقضايا الفكرية أو يتطرق(للأيديولوجيات) المختلفة حتى يكون رأيه معقولا ومقبولا فى الأوساط العلمية والفكرية.

***

= وممن وهم من العلماء، وزاد لفظ«ثلاث» الزمخشرى والقاضى. وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد فى كتاب الزهد، والنسائى، والحاكم ، والبيهقى فى السنن، عن أنس بن مالك، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقال الحافظ العراقى: إسناده جيد، وقال ابن حجر:حسن.

انظر: فيض القدير للمناوى: ج ٣ ص ٣٧٠ ـــ ٣٧١، ط الأول ١٣٥٦هـ ، ١٩٣٨م ، القاهرة.

(١)حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ص ١١٢



كيف أدخلت هذه الأخبار المدسوسة فى التراث الإسلامى

من المعلوم أنها تكونت مدارس للتفسير فى زمن الصحابة والتابعين وتداولت تلك المدارس مجموعة من التفسير بالمأثور المنسوب بعضه إلى النبى(ﷺ) والمنسوب كثير منه إلى الصحابة كابن عباس وابن مسعود وعلى بن أبى طالب وابن عمر وغيرهم. وأكثره منسوب إلى التابعين كمجاهد وقتادة ومسروق والحسن البصرى وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم كثير، ولكن تلك المجموعة من التفسير بالمأثور اختلط ببعضها كثير من الإسرائيليات مما يشوه أحيانا جمال التخريج ويفسد أحيانا التأويل، وقد يدخل أعداء الإسلام فى هذا الباب كثيرا من الأوهام المضللة.

ويظهر أن ابتداء دخول الإسرائيليات فى تفسير القرآن الكريم كان عندما أراد بعض الصحابة والتابعين الاستشهاد بما عند النصارى واليهود مما يصدق ما جاء به النبى(ﷺ) ليلزموا خصومهم الحجة من واقع ما يعتقدونه ويعترفون به كما فعل النبى(ﷺ) عندما احتكم إليه اليهود فى أمر الزنا فسألهم عما عندهم فى التوراة وفتحوها فإذا آية الرجم تلوح[1].

ويروى فى ذلك أن عبد الله بن عمروبن العاص قد أصاب يوم وقعة اليرموك التى فتحت الشام بعدها فى عهد الفاروق رضى الله عنه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يتحدث منهما بما فهمه ولا شك أنه ما كان يحدِّث بما فيهما إلا مؤيدا للدين مستشهداً للإلزام والقطع والاحتجاج عليهم وما كان يأخذ منهما متزيداً على الإسلام أو يأتى بما

(١)انظر فتح البارى ج١٢ ص ١٦٦

يغاير ما جاء به النبى (ﷺ) لاسيماأنه وجد هاتين الزاملتين والفاروق عمر يحمل درته ويكوى بها ظهر من يفسد أمر هذا الدين أو يتزيد على أقوال سيد المرسلين، ولكن ما إن مضى زمن قليل حتى راجت هذه الإسرائيليات ولم تعد مقصورة على الاستشهاد بل كانت للتأويل والتخريج والتفسير وتحميل القرآن ماليس منه، ومن هنا وجد كثير من أعداء الإسلام الثغرات التى ينفذون منها إلى إفساد معانى القرآن الكريم وإدخال بعض التفسيرات التى تحيل المعنى وتجنح بالآيات إلى مسايرة أهواء المضللين...

***

يوحنا الدمشقى

ومن الذين حملوا راية التضليل والدس على الإسلام وإلقاء الشبه يوحنا الدمشقى الذى وجد فى عهد عبد الملك بن مروان وكان اسمه العربى(منصور). وهذا الرجل هو الذى دس أول فرية مما يتناقله الناس بعده من أن النبى(ﷺ) عشق زينب بنت جحش ؛ فقد ذهب إلى تأويل قوله تعالى(وإذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عليه وأَنْعَمْتَ عليه...) إلخ الآية أن معنى الآية أن النبى(ﷺ) رأى زينب زوج زيد فى حال أثارت عشقه فعشقها وأراد زواجها، دس ذلك النصرانى هذه الفرية وراجت بين تابعى التابعين أنفسهم حتى جاءت على لسان قتادة منسوبة إليه، وقبلها ابن جرير الطبرى ونقلها عنه غيره، فكانت بلا شك أعظم فرية، وهى تجافى نسق الآية وخلق النبى(ﷺ) . ولم يثبت فى الصحاح شئ من هذا ولم ينسب هذا التخريج لأحد من الصحابة بطريق مقبول.

ونحن إذا تتبعنا كتابات المستشرقين ومكايد المبشرين رأينا صورا عجيبة؛ فهم يتحدثون بكل صراحة أنهم يعملون على هدم أسس العقيدة الإسلامية وأن السلطات الكنسية شرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أسس العقيدة الإسلامية بأسلحة فكرية عن طريق انتشار الثقافات والعلوم بما تحمله من الدس والشبهات.

والثقافات التى تغزو المجتمعات هى فى الحقيقة جيش غير منظور فالمستشرق البروفسر«الفريد غيوم» فى مقال له بعنوان(الفلسفة وعلم الكلام)(١) يقول ما نصة(.. وبمرور الزمن أسلم الكثير من اليهود والنصارى تملصا من الجزية التى كانت تجبى من الموحدين وأهل الكتاب من غير المسلمين، فهؤلاء الذين دخلوا كنف الدين حملوا

(١)تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد ص ٣٦٤

معهم ثقافة الأمبراطورية البيزنطية وثقافة اليونان، هذه الانشقاقات الواسعة أفزعت السلطات الكنسية فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أسس العقيدة الإسلامية... ثم يستطرد قائلا فالقديس يوحنا الدمشقى(١) كان يستطيع أثناء مناظرته إفحام مناظريه المسلمين ببراهين تأتيه مطواعة مستسلمة... إلخ).

كان يوحنا وأمثاله يجادلون بحرارة ويستدلون بالإسرائيليات، فإذا وجدوا الفرصة سانحة دسوا ما يريدون دسه على المسلمين وربما اتخذوا من الروايات الإسرائيلية التى تقول إن داود عليه السلام أحب زوجة قائده(أوريا) وأنه عمل على التخلص منه حتى قتل فتزوجها داود بعده، ربما عملوا مقارنات ومعادلات بينها وبين ما زعموه فى قصة زواج النبى(ﷺ) بزينب.

ولقد راجت تلك الإسرائيليات عند بعض التابعين الذين ذكرناهم ممن لهم عناية بالتفسير حتى إن كبار المحدثين كمالك رضى الله عنه كان يتشكك فى بعض روايات التفسير عن قتادة، فكان لايروى عنه فى التفسير ولا يروى عمن روى عن قتادة فى التفسير.

ثم جاء المفسرون فى القرن الثالث وما بعده الذين دونوا التفسير فى مجموعات علمية فوجدوا تلك الثروة التى تركها التابعون من الروايات النقلية فى التفسير ووجدوا مجموعة كاملة منسوبة لابن عباس رضى الله عنهما. ولكن تلك التركة العظيمة قد اختلط بها بعض ما يجب تنقيته منها؛ اختلط بها إسرائيليات غير معقولة فى ذاتها، وبعضها مخالف للمقررات الإسلامية، وبعضها زيادات لا صلة لها بالدين ولا تربطها بالإسلام رابطة ولا تجمعها به جامعة فوقفوا أمام هذه المجموعة فريقين:

فريق اقتصر على الآثار لم يَعْدُها إلَّا قليلًا ، وعلى رأس هؤلاء إمام

---

(١)يوحنا الدمشقى (٨١-١٣٧هـ ، ٧٠٠ — ٧٥٤م).

المفسرين ابن جرير الطبرى فهو ينتقى من هذه المجموعة ما يراهُ أنسب للقرآن وأقرب إلى اللغة العربية الصحيحة وما يتفق مع جملة المأثور عن النبى(ﷺ) من أحوال وأعمال وأقوال وما عرف من هذا الدّين بالضرورة ولم يتقيد فى الرواية بما قيد المحدثون به أنفسهم من تحرى السند تحريا دقيقاً بل تساهل قليلًا فى ذلك وشدد فى انتقاء المروى نفسه ومع ذلك دخل عليه بعض الخلط الإسرائيلى أو المدسوس كما رأينا فى قصة زيد وزينب.

وفريق فسروا على طريقة السلف واجتهدوا فى انتقاء الرواية وحاولوا دراسة الأسانيد بالطرق المناسبة فى الجملة وإن لم يتقيدوا تقيداً مطلقاً بنقد الرواية فى الحديث النبوى من هؤلاء البغوى وابن كثير وبخاصة ابن كثير رحمه الله فقد عنى بالنقد والفحص أكثر من غيره؛ ولذلك رد كل روايات ابن جرير فى قصة زيد وزينب؛ فهو يقول فى تفسيره عند هذه القصة ما نصه: قال الله تعالى(وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَالله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها [١] وإذا كانت أقوال السلف ومن اتبعوا طريقهم ونقلوا عنهم قد اختلط بها أقوال إسرائيلية كثيرة فإن هناك علماء آخرين اتجهوا إلى التفسير معتمدين على السنة النبوية الصحيحة الثابتة صحتها وأقوال الصحابة الثابتة نسبتها وأضافوا إلى ذلك بحثهم وفهمهم للقرآن فى ضوء ما يؤدى إليه أسلوبه العربى المستقيم والمأثور من لغة العرب، وتفنن بعضهم فى دراسة بلاغة القرآن وتحرى مواضع الإعجاز فيه وأسرار بلاغته ودلائل إعجازه [٢] وقد بدأ ذلك فى القرن الرابع الهجرى.

---

(١)تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١

(٢)انظر مناهج التفسير لأبى زهرة لواء الإسلام العدد الثامن السنة الخامسة ص ٥٠٣

وإذا كان يوحنا وأحزابه وكثير من أعداء الإسلام قد حملوا رايات التشكيك والدس على الإسلام فى لباقة فائقة فإنهم لم يكونوا في الميدان وحدهم، بل ظهرت حركات هدَّامة قام بها بعض الشعوبيين فى القرنين الثالث والرابع حيث كانوا يحاولون هدم الإسلام وتقويض أركانه وتشويهه بكثير من الدسائس والمقالات.

وآية الأحزاب فى شأن قصة زيد وزينب هى السند الأوثق والمستلهم الأقوى لمن تأمل نصوص القرآن وتدبرها بنظرة استقلالية مجردة عن المؤثرات الخارجية. وسأوضح هذا عند مناقشة الموضوع فى ضوء الآية الكريمة وإيراد القصة على وجهها الصحيح إن شاء الله.

تنبيه المحققين من علماء الإسلام لهذه الأخبار الدخلية

ذكرنا فيما تقدم أن مجموعة من المفسرين سلكوا طريق التحقيق فيما ينقلونه من الأخبار وأنهم وضعوا ذلك فى ميزان الجرح والتعديل، ومن هؤلاء الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، وتقدم قوله فى الروايات التى عرضت لقصة زواج زيد وزينب وأنه ضرب عنها صفحا لعدم صحتها.

كما كان رأى الإمام الزهرى فيما رواه عنه عمر بن قائد قال:(نزل جبريل عليه السلام على النبى(ﷺ) يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش فذلك الذى أخفى فى نفسه..)[1].

وكذلك رأى القاضى بكر بن العلاء القشيرى كما نقله عنه القرطبى[2].

(١)تفسيرالقاسمى محاسن التأويل ج ١٣ ص ٤٨٦٩

(٢)انظر تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٩٠ — ١٩١

وقال الإمام أبو بكر بن العربى فى شأن هذه القصة وأن الرسول(ﷺ) رأى زينب فوقع فى قلبه حبها... الخ قال: إنه لا يصح وأن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم فى فهم الآية لم يقدروا مقام النبوة حق قدره ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها.

ثم قال: وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد وإنما الصحيح منها ما روى عن عائشة أنها قالت: لو كان النبى(ﷺ) كاتماً شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية(وإذْ تقولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عليه) يعنى بالإسلام(وأَنْعَمتَ عليه) فأعتقته(أَمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ) إلى قوله (وكان أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا) وأن رسول الله(ﷺ) لما تزوجها ــ أى زينب ــ قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله(ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبَاَ أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) الآية، وكان رسول الله(ﷺ) تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد فأنزل الله(ادْعُوهُمْ لِابَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) قال القاضى: وما وراء هذه الرواية غير معتبر، فأما قولهم:(إن النبى(ﷺ) رآها فوقعت فى قلبه فباطل..)[1].

ولقد تابع المحققون من المفسرين رفضهم لهذه الروايات بالنقد والرد واعتبروها دخيلة على الإسلام.

فالإمام القرطبى مع أنه أورد معظم الروايات فى تفسيره رجح ماروى عن الحسين بن على من أن الله أعلم رسوله (ﷺ) بأن زينب ستكون من أزواجه وأنه أخفى ذلك حياء وهو الذى كان يخفى فى نفسه ــ (ﷺ) ــ حيث قال القرطبى(..وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين).

كما رجّح العلامة الألوسى فى تفسيره[2] ماروى عن الحسين أيضاً ورد تلك الروايات الساقطة.

---

(١)أحكام القرآن لابن العربى ج٣ ص ١٥٣١

(٢)تفسير الألوسى ج٢٢ ص ٢٣ ــ ٢٤ المطبعة المنيرية.

وكذلك عمل العلامة جمال الدين القاسمى فى كتابه محاسن التأويل ونقل كلاماً جيداً فى هذا الموضوع[1].

وغير هؤلاء كثير من المفسرين والباحثين المسلمين.

الإتجاهات الفكريه التى أثيرت حول زواج النبى (ﷺ) بزينب

ماذكرته فى الفقرات السابقة يعطى صورة لتباين الاتجاهات الفكرية فى زواج النبى(ﷺ) بزينب، ولكنى هنا أريد أن أعرض لهذا الموضوع عن طريق المقارنة والاستقراء لتلك الاتجاهات الفكرية. ويمكن تصنيف تلك الاتجاهات إلى مايلى:

الاتجاه الاستشراقى،والاتجاه بإمكان الحب كعاطفة بشرية، والاتجاه السلبى،والاتجاه التحقيقى.

١ـالاتجاه الاستشراقى الحاقد على الإسلام:

ويتمثل هذا فيما أثاره المستشرقون ودوّنوه فى كتبهم ونشراتهم الدورية؛ وقد تقدمت أقاويلهم المزيفة.

ومن الإنصاف أن يذكر للمستشرق «مونتجومرى وات» بعض الأقوال المعتدلة إلى حد ما وإن كان عليها بعض المآخذ لعدم فهمه لِلْحِكَمِ التّشريعيّة التى قصدها الإسلام فى هذا الزواج.

يقول فى موضع آخر من كتابه«محمد فى المدينة»:(ليس من المبالغة القول بأن جميع زيجات محمد كان لها هدف سياسى.. لنا الحق إذن فى القول بأن محمداً فى قصة زينب بنت جحش لم يذهب ضحية حب عنيف بل رأى بوضوح الفوائد السياسية لهذا الزواج...ثم يقول.. وبالرغم من القصص العاطفية، من البعيد أن يكون محمد قد أُسِرَ بمفاتن زينب الجسدية[2] .

(١) انظر محاسن التأويل ج ١٣ ص ٤٨٦٤ ــ ٤٨٧٧

(٢) انظر محمد فى المدينة ص ٥٠٤ ــ ٥٠٥

٢ـ الاتجاه بإمكان الحب من النبى(ﷺ) ، كعاطفة بشرية مع كبحه جماح شهوته:

لقدتَساهَل بعض العلماء القدامى في التحقيق فى جوانب العصمة النبوية، وطغت عليهم بشرية الرسول(ﷺ) ، وما ورد فى القرآن الكريم مثل قوله تعالي:

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ....» (١).

وقوله تعالى:

«قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا» (٢).

وفات بعضهم التمييز بين بشرية الرسول (ﷺ) ومقومات الشخصية التى جعله الله عليها، وهيّأه بها لتحمل أعباء الرسالة الخالدة، وبين البشرية العادية التى تؤثر فيها مظاهر الحياة وتجنح بها عواصف الزينة ومتع الحياة.

فالرسول(ﷺ) بشر، ولكن مقومات شخصيته ورعايتها منذ الصغر تختلف فى جوهرها وتكوينها، فقد أعده الله إعداداً خاصاً مشمولًا بكثير من العناية الربانية، لكى تتناسب شخصيته ومقامه الكريم، مع عظمة رسالته الخالدة، ولهذا نقول: إن المؤثرات الخارجية فى نفس رسول الله(ﷺ) من الحب والعاطفة البشرية تتمشى تماما مع ما أباحه الله له وجعل فيه خيراً له ولأمته؛ فقد كان يحب نساءه، وكان يحب عائشةَ أكثر من غيرها من نسائه وهذه الفطرة البشرية العامة يستوى فيها رسول الله (ﷺ) وغيره، لأن مثل هذا الحب مما أباحه الله تعالى، بل جعله من أصل الفطرة البشرية، فقال:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)(٣).

---

(١)سورة الكهف ــ ١١٠ (٢)سورة الإسراء ٩٣

(٣)سورة الروم آية ٢١

ولكن العاطفة المنحرفة لا يُتَصَوّرُ صدورُها من رسول الله (ﷺ) مع أنه بشر، لأن هذا يخالف بعض مقتضيات رسالته، كقوله جل وعلا:

«وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»(١) .

إذا عرفنا هذه المقدمة فإن بعض العلماء والكتاب المعاصرين يخطئون كثيراً عندما يتصورون صدور هذه العاطفة من رسول الله(ﷺ) عند رؤيته لزينب، وأذكر على سبيل المثال من الكتّاب المعاصرين مقالة الدكتورة بنت الشاطئ فى كتابها«نساء النبى»(٢) .

فالدكتورة بنت الشاطئ وهى ترد على الدكتور«هيكل» فى كتابه«حياة محمد» الذى هاجم فيه المستشرقين والمبشرين لما نقلوه وروَّجوه من قصص كاذبة، وروايات دخيلة على الإسلام فى شأن زواج النبى(ﷺ) بزينب.

ترد عليه وتنقده بأدب فتقول:(... ولست أدرى ما الذى أنكره الدكتور هيكل منها ــ أى قصة زينب ــ حتى اندفع يردها إلى مفتريات المستشرقين والمبشرين الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله» ثم تقول:«وعند الدكتور هيكل أن زواج الرسول من زينب لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة وإنما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة والتبنّى والادعاء.» واستطردت قائلة«وما أنْبَلَه من ردّ لولا أن قصة إعجاب الرسول (ﷺ) بزينب وحكاية السّتر من الشعر الذى رفعته الريح وانصراف الرسول(ﷺ) عن بيت زيد وهو يقول: سبحان مقلب القلوب، قد كتب قبل أن تسمع الدنيا

---

(١) سورة طه آية ١٣١

(٢)نساء النبى لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ص ١٣٥ ــ ١٤٥

بالحروب الصليبية بأقلام نفر من مؤرخى الإسلام ورواة السيرة لا يرقى إليهم اتهام بعداء النبى(ﷺ) والدس على الإسلام.»

ومن الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين من أمثال موير، ومرجليوث، وأرفنق وسبرنجر، لنقرأ القصة على مهل فى تاريخ الطبرى وفى الإصابة، وفى كتب التفسير وفى السمط الثمين أفينكر على بشر رسول أن يرى مثل زينب فيعجب بها؟.

وماذا يطلب من مثله فى سمو خلقه وعفة ضميره أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته وهو يسبح باسم الله العظيم مقلب القلوب؟.

هذا ملخص وجهة نظر عائشة بنت الشاطئ فى ردها على الدكتور«هيكل» وهى ترى أن العاطفة تحركت وثارت بالفعل من رسول الله(ﷺ) عندما رأى زينب فى حالة مثيرة.

ومستمسك الدكتورة بنت الشاطئ فى رأيها أمران:

الأول: أنه بشر وما يجرى فى الفطر البشرية يجرى على النبى (ﷺ) ولكنه عفيف النفس طاهر الضمير.

الثانى: أن هذه القصة رويت عن مجموعة من المفسرين والمؤرخين قديماً وهم لا يتهمون بعداء النبى(ﷺ) والدس على الإسلام.

ولى هنا وقفة يسيرة لمناقشة الدكتورة بنت الشاطئ فى رأيها هذا فأقول: أما كون الرسول (ﷺ) بشرا فلا ينازع فى هذا منازع، وكونه يجرى عليه من العواطف البشرية ما يجرى على غيره، فهذا الكلام فيه إجمال، وقد ذكرت سابقا أن عاطفة الرسول(ﷺ) عاطفة بشرية سامية تتفق مع عظمة رسالته؛ فميوله(ﷺ) وهواه تبعٌ لما توحى به شريعة الله، ولا يتصور صدور العاطفة المنحرفة التى تشين كرامته(ﷺ)، بل هو المَثَلُ الأعلى فى سموّ النفس وعفة الضمير وفى كل معنى من معانى السمو الانسانى، أما كون هذه الروايات وردت فى كتب التفسير والسير فهى المشكلة التى أعددنا من أجلها

هذه الدراسة،لأن هذه الروايات كانت تكأة للمبشرين والمستشرقين على مر العصور، وكونها وردت فى كتب هؤلاء الأئمة لايمنع من تمحيصها وعرضها على موازين التحقيق لاسيما إذا كانت تتصل بالعقيدة أو لها مساس بكرامة الأنبياء، ولا يلزم من كون هذه الروايات وردت في كتبهم وهى مناقضة لبعض الحقائق العلمية أن يكونوا متهمين بعداء الرسول(ﷺ) أو الدس فيه، فهم بعيدون كل البعد عن هذا الاتهام، بل هم أئمة هدى وقادة فكر، ولكننا قد بينا فيما سبق كيف أدخلت هذه الروايات في التاريخ والتراث الإسلامى، وأن الروايات المدسوسة قد تدخل بعض الأحيان على بعض كبار العلماء ثم يتناقلها الرواة من بعده وتنتشر فى أوساط الناس مما يصعب معه التنبه لها إلا بعد حين.

وما قررته بنت الشاطئ فى توجيه القصة على العاطفة والميل النفسى يمكن قبوله فيما لو كانت القصة صحيحة، ولكن هذه القصة لا تقوم على أساس صحيح، فلماذا الأخذ والرد فى قصة متهافتة تشبه الخيال وكأننا لا نعرف موازين الأخبار وتمحيصها وفق ما قرره علماء الإسلام من أهل الجرح والتعديل.

فاعتراض بنت الشاطئ على الدكتور«هيكل» فى نظرى فى غير محله ونظرتها ليست بعيدة عن نظرات المستشرقين فى هذه القضية وإن كان لها بعض الآراء الجيدة فى كثير من المواقف الأخرى.

وهناك كاتب إسلامى آخر تعرض للقصة أيضا وكان موفقا إلى حد كبير غير أنه رجع فعلّق على الموضوع بما يوحى باقتناعه بالآثار الواردة فى هذه القصة،وقبوله لهذه الآثار لا يعفيه من مسئولية هذا الاتجاه،مع أنه رجل فاضل وكاتب إسلامى قدير وهو الدكتور«محمد سعيد رمضان البوطى» وقد ذكر فى كتابه«كبرى اليقينيات» رؤية النبى(ﷺ) لزينب وهى فى عصمة زيد حيث قال مانصه«.... وربما

أبصرها خلال هذه المدة ذات يوم فتحرك قلبه نحوها فأشاح بوجهه قائلا بينه وبين نفسه«سبحان الله مقلب القلوب» فقد ذكرت روايات شيئا من هذا القبيل، ولست أدرى ماهو هذا الذى يدعو إلى التحرج من قبول هذه الرواية أو استشكالها أو الوقوف عندها؟ ماذا من الشبة أو الإشكال فى أن يريد الله أن يزوج رسوله(ﷺ) من مطلقة متبناه لحكمة تشريعية معينة فيهئ لذلك سبيله الإنسانى المعروف»[١] ثم قال فى التعليق فى الهامش على هذا الكلام:«أقول هذا الكلام لمن رأى أن يتمسك بهذه الرواية التى أشرنا إليها ويعتبرها رواية صحيحة اتباعا لما رواه الطبرى والنيسابورى وذكره البيضاوى وابن الجوزى لنوضح له أنها على فرض كونها صحيحة لا تصلح معتمدا لبث أى نقيصة فى جانب رسول الله (ﷺ). وقد ضعفها جمع كبير من علماء الحديث وأئمة التفسير ومنهم القرطبى وابن كثير.

ونحن قد آثرنا ألا نضرب صفحا عن الروايات الأخرى التى ساقها الطبرى وآخرون كما يرى البعض، بل أحببنا أن نكشف عن عصمة سيدنا(ﷺ) عما يرميه به طائفة من المستشرقين وأرباب الغزو الفكر حتى على فرض صحتها فهى لا تزيده (ﷺ) إلا رفعة فى الخلق وسموا فى الجانب..........الخ[٢]».

ونحن لا نرى هذا المنهج يحقق الغاية فى اعتقاد عصمة رسول الله (ﷺ). وكلام الدكتور البوطِى يوهم بأن بعض العلماء قد صحح الروايات التى تقول بميل رسول الله(ﷺ) القلبى إلى زينب وهى فى عصمة زيد، انظر إلى قوله:(..لمن رأى أن يتمسك بهذه الرواية التى أشرنا إليها ويعتبرها صحيحة اتباعاً لما رواه الطبرى والنيسابورى...الخ).

---

(١)كبرى اليقينيات الكونية ــ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦
(٢)المرجع السابق ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦

والحقيقة أنه لم يقل أحد من العلماء المعتمدين بصحة تلك الروايات، بل على العكس نعتوها بأنها دخيلة مدسوسة على التراث الإسلامى، ولا حجة فى ورود هذه الروايات فى كتب العلماء الكبار كابن جرير الطبرى وغيره، لأننا قد ذكرنا أن هؤلاء الأئمة نقلوها عن غيرهم وتركوا العهدة فى صحة النقل على غيرهم، ولم يتعرضوا لها بالتصحيح أو الإبطال، وهذا من المآخذ التى تؤخذ عليهم فى عدم التحرى الدقيق عند نقل بعض الأخبار الإسرائيلية، وإن كان هذا مخالفاً لما عهد عنهم من التحرِّى والضبط فى كثير من المواقف، ولكن سبحان من له العظمة والكمال المطلق و«كفى المرء نُبلًا أنْ تُعدَّ معائبهْ».

الاتجاه السلبى أمام هذه الأخبار:

يتمثل هذا الاتجاه فى المنهج الذى سار عليه بعض المفسرين وأصحاب السِّيَر فى الإكثار من نقل الإسرائيليات وغيرها من الأخبار الضعيفة دون الالتزام بعهدة الصحة والتحقيق فيما يوردون فى كتبهم، فربما نقلوا عن غير قصد بعض الأخبار وهى فى نفسها لاتحمل طابع الصحة ولم يظهر لهم منها وقت تدوينها ما يتنافى مع الحقائق العلمية، وخاصة مادرج منها على ألسنة الرواة كأخبار مجئ النبى(ﷺ) إلى بيت زيد وتأثره عند رؤيته زينب، وقد رويت هذه الأخبار وتركت كما هى دون تعقيب عليها بالصحة أو الفساد ممن نقلها فى بداية الأمر، الأمر الذى جعل المتأخرين ينقلون هذه الروايات معتمدين على مجرد ورودها فى كتب الأقدمين.

وهذا المنهج قد ترك أثراً كبيراً فى الاتجاهات الفكرية وبالأخص الفكر المعاصر حيث نشطت الحركة الاستشراقية وتلاقحت الأفكار فى معترك الصراع الفكرى مما جعل هذا الموضوع يشغل حيّزاً كبيراً من كتابات المستشرقين التى لقيت رواجا فى أوساط المثقفين بصرف النظر عما تحمله من معاول الهدم والتخريب للأخلاق والمعتقدات.. ولستُ بصدد إيراد الأمثلة ومناقشة الموضوع من زواياه الفكرية المعقّدة، وإنما قصدتُ تبيان الآثار التى تركها ذلك الاتجاه السلبى أمام أخطر دسيسة يُغْمَزُ بها جانب النبوة، وينفذ منها إلى تشوية الحقائق التاريخية للسيرة العطرة التى تحلى بها سيد المرسلين ورسول رب العالمين محمد(ﷺ)، وقد ذكرت فيما سبق أن ممن تأثر برواية تلك الأخبار الدخيلة إمام المفسرين ابن جرير الطبرى دون قصد فارجع إليه إن شئت.

وسأذكر فيما يلى مجموعة من أصحاب هذا الاتجاه على سبيل المثال:

١ ــ محمد بن سعد: أورد هذه الروايات فى كتابه الطبقات الكبرى[١] ، وقد أوردت بعض هذه الروايات كما تقدم فى هذا الكتاب[٢] .

٢ ــ ابن جرير الطبرى: روى هذه القصة فى تفسيره[٣] وفى تاريخه[٤]، وساق الروايات التى تعرضت للقصة ولم يعقب عليها بشئ، وهو غير ملوم فيما نقله لأنه كان ناقلا، بيد أنه يؤاخذ على إيراده تلك الروايات مجردة عن النقد العلمى لاسيما وهو على درجة كبيرة من الإمامة فى الدين.

(١)انظر الطبقات ج٨ ص ١٠١ ــ ١٠٢

(٢)انظر ص ١٢ ــ ١٣ من هذا الكتاب.

(٣)انظر تفسير الطبرى ج ٢٢ ــ٢٥ ص١٣

(٤)انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٣ ط مصر.

وقد أوضحنا لك أسباب وقوعه دون قصد فى تلك الروايات الدخلية.

٣ ــ الزمخشرى: أورد الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) مانصه: «..أبصر النبى (ﷺ) زينب بعد ما أنكحها إيّاه ــ يعنى زيداً فوقعت فى نفسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب... الخ»(١).

٤ ــ الإمام البغوى: ذكر فى تفسيره مضمون تلك الروايات فقال ما نصة: فى قوله تعالى: (وتُخْفِى فى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيه)، قال: أى حب زينب وهى فى عصمة زيد.... الخ(٢).

٥ ــ الإمام فخر الدين الرازى: ذكر هذا المعنى في تفسيره دون تعقيب عليه حيث قال فى قوله تعالى: (وتُخْفِى فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ). من أنك تريد التزوج بزينب(٣).

٦ ــ الإمام الشوكانى فى تفسيره فتح القدير، قال مانصه: (وتُخْفِى فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ) وهو نكاحها إن طلقها زيد، وقيل: حبها(٤)، على أن هؤلاء الأئمة الأعلام لم يكن لهم قصد سيء قطعا فى تدوين هذه الأخبار الدخيلة فى كتبهم، ولكن نقلوها كأى خبر من الأخبار، وفاتهم التمحيص والتحقيق فى هذه القصة الخطيرة، وإذا كان هذا الخطأ قد وقع منهم دون تعمد أو حسبان لما ينطوى عليه من مفاسد، فإن لهم من المواقف الحميدة والتحقيق العلمى فى مختلف القضايا العلمية مايجعلهم أئمة هدى وقادة فكر، وهذه هفوة لاتقاس بجانب مالهم من السابقة والفضل.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ص ٢٦٢ ط الحلبى.

(٢) تفسير البغوى على هامش الخازن ج ٥ ص ٢١٥

(٣) انظر تفسير الفخر الرازى ج ٢٥ ص ٢١٢

(٤) فتح القدير ج ٤ ص ٢٨٤

«الاتجاه التحقيقى»

وهناك ثُلَّةٌ كبيرة من علماء الإسلام تفطنوا لمثل هذه الأخبار وعرضوها على موازين الجرح والتعديل، ورمقت أبصارهم ما تنطوى عليه من مداخل خطيرة لا تليق بمقام الأنبياء، فأنار الله بصائرهم لكشف النقاب عن هذه الآثار الدخيلة، وعرفوا المداخل التى نفذ منها أعداء الإسلام حتى وضعوا مثل تلك القصص الخيالية بقصد الإساءة إلى التراث الإسلامى، بل إلى رسول الإسلام نفسه.

وأذكر بالفضل والإكبار بعض هؤلاء الأئمة الذين تصدوا لتلك الأخبار وكشفوا عنها أستار الدس والتدليس وهم:

١ ـ الإمام الزهرى(١).

٢ ـ القاضى بكر بن العلاء القشيرى(٢).

٣ ـ الإمام أبو بكر بن العربى(٣).

٤ ـ الإمام الحافظ ابن كثير.

٥ ـ الإمام القرطبى.

٦ ـ العلامة: جمال الدين القاسمى.

٧ ـ العلامة: الألوسى.

٨ ـ الشيخ: محمد عبده.

٩ ـ الدكتور/ محمد حسين هيكل.

١٠ ـ الشيخ محمد الغزالى.

وغيرهم من علماء الإسلام المحققين.

---

(١)انظر تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٩١ وتفسير القاسمى ج ١٣ ص ٤٨٦٩

(٢)انظر تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٩١

(٣)انظر أحكام القرآن ج ٣ ص ١٥٣٠ ـ ١٥٣٢

وهؤلاء كانت آراؤهم واضحة فى هذه القضية، وكان لهم فضل التنبيه وإيقاظ الفكر الإسلامى للتصدى لكل دسيسة يراد منها النيل من قداسة رسول الله (ﷺ) أو تشويه الحقائق التاريخية فى تراث الإسلام.

هذا ملخص الاتجاهات الفكرية فيما أثير حول زواج النبى(ﷺ) بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها.

ونحن الآن بصدد العرض لزواج النبى(ﷺ) بزينب، وأسبابه، والأحوال التى جاءت بين يدى هذا الزواج، ولكن المدخل إلى ذلك سيكون عن طريق معرفة زواج زيد بن حارثة رضى الله عنه بزينب لارتباط الزواجين من بعض الوجوه، وما دار فى زواج زيد بزينب من ملابسات أدت فى النهاية إلى طلاق زينب.

ولكن يجدر بنا ونحن نتحدث عن زيد بن حارثة على أنه مولى لرسول الله (ﷺ) أن نعرف أنه عربى الأصل واللسان،وذلك عن طريق نبذة يسيرة عن حياته فيما يلى:

نسبه : قال الحافظ بن حجر العسقلانى فى الإصابة:

هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبودّ بن عوف بن كنانة ابن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة الكلبى[1] .

وأورد ابن سعد نسب زيد فى الطبقات بصورة أطول من هذا حيث أضاف على النسب المتقدم(.. وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ـــ واسمه عمرو وإنما سمى بقضاعة لأنه انقضع عن قومه ـــ ابن مالك بن عمرو مرة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان..)[2] .

---

(١)الإصابة ج ٨ ص ٤٦ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧

(٢)الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٤٠ ط صادر

وعلى هذا يرجع نسب زيد بن حارثة إلى القبائل القحطانية فهو إذن عربى الأصل والمنشأ.

أما أمه فهى: سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت بن سلسلة من بنى معن من طيئ[1].

***

(١) الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ٤٠

زيد بن حارثة

كانت الغارات الجاهلية قبل الإسلام تسير على قدم وساق فكان بعض القبائل العربية يغير على بعض يسلبون وينهبون ما بدا لهم دون وازع يردعهم، وإنما الحكم لمن غلب.

وكان اختطاف زيد بن حارثة من بين أحضان أمه أثراً من تلك الآثار الجاهلية الهوجاء.

ولاشك أن هذه الغارات كانت تحدث ذعراً واضطراباً بين الناس، ولقد قضى الإسلام على هذه الغارات والنعرات الجاهلية فأصبح المسافرون يسيرون فى ظله العادل مسافات طويلة لايخافون شيئاً على أموالهم وأنفسهم،وتلك ثمرة من ثمار إقامة المجتمعات على منهج الشريعة الإسلامية العادلة،أما قصة اختطاف زيد، فقد ذهبت أمه سعدى بنت ثعلبة لتزور أقاربها وأخذت معها ابنها زيد بن حارثة ليسعدها ويعيش مع أخواله ساعات ممتعة.

وبينما هى فى أسعد لحظاتها وهى مجتمعة مع اقاربها وأحبابها إذْ أغارت عليهم قبيلة على عادة العرب فى الجاهلية فاختطفت زيداً.

يقول ابن سعد فى طبقاته مايلى:

«زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها فأغارت خيل لبنى القين بن جسر فى الجاهلية فمروا على أبيات بنى معن رهط أم زيد، فاحتملوا زيداً إذ هو يومئذ غلام يفعة قد أوصف فوافوا به سوق«عكاظ» فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم»(١) .

هذه رواية ابن سعد فى الطبقات:

---

(١)طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤٠ — ٤١

وهناك رواية أخرى عند ابن هشام تشير إلى أن زيد بن حارثة جئ به من الشام إلى الحجاز، وبعض المصادر التاريخية تقول إن زيداً بيع فى سوق«حباشة» وهى من أسواق العرب وزيد يومئذ ابن ثمانية أعوام(١) .

وسوق(حباشة) المذكور كان من أسواق العرب فى الجاهلية وهو سوق تهامة القديم ، وسوق أخرى كانت لبنى قينقاع(٢) .

أما رواية ابن هشام فإنها تقول:(....وكان حكيم بن حزام ابن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة وصيف فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد وهى يومئذ عند رسول الله (ﷺ) فقال لها: اختارى ياعمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيداً فأخذته فرآه رسول الله(ﷺ) عندها فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه رسول الله(ﷺ) وتبناه وذلك قبل أن يوحى إليه...)(٣) وعلى كل حال فإن أشهر الروايات لا تختلف فى أن حكيم بن حزام هو الذى اشتراه وأعطاه خديجة بنت خويلد بقيمة أو هبة، وشذ الإمام محب الدين الطبرى فقال:(إن رسول الله(ﷺ) اشترى زيداً فى الجاهلية بعكاظ..)(٤) .

ولقد ذهب والد زيد وأعمامه للبحث عنه كما حزنت أمه حزنا شديداً على فقدانه. وقد قال والد زيد شعراً يعبر فيه عن أحاسيسه وآلامه تجاه ابنه المفقود فقال أبياتاً نقتطف منها ما يلى:

بَكَيتُ على زيدٍ ولم أَدْرِ ما فعلْ
أحىٌّ فيُرْجَى أم أَتَى دُونَهُ الأجَلْ

(١) انظر الروض الأنف للسهيلى ج ١ ص ٢٨٦

(٢) انظر القاموس المحيط ج ٢ ص ٢٦٧، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ج ٢ ص ٢١١

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧

(٤) السمط الثمين ص ٢٢٥ ط حلب.

فو اللهِ ما أَدْرِى وَإنْ كُنْتُ سائـلًا
أَغَالَكَ سَهْـلُ الأرضِ أَمْ غَالَكَ الجَبَـلْ
تُذَكِّرُنيــــهِ الشَّمْسُ عنـــــد طُلُوعِهـــــا
وتَعـــرِضُ ذِكـــراهُ إذا قارَبَ الطَّفَـــــلْ
وإن هَبّت الأرواحُ هيّجـــــنَ ذِكْـــــره
فيا طولَ ما حُزنـى عليـه ويـا وَجَـلْ
سأُعمِلُ نصَّ العيسِ فى الأرض جاهداً
ولا أَسْأَمُ التطَّــواف أو تسأمُ الإبـــلْ
حياتـــىَ أو تأتـــى عَلَـــىّ مَنِيَّتـــــىِ
وكـل امـرئٍ فانٍ وإن غرّهُ الأمَـــلْ[١]

وفى غمرة البحث عن زيد جاء صوت البشير إلى أبيه بوجوده فى مكة.

وقد أورد ابن سعد فى طبقاته هذه القصة فقال[٢] :

(..فحج ناس من كلب ـــ قبيلة زيد ـــ فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه فقال: بلغوا أهلى هذه الأبيات فإنى أعلم أنهم قد جزعوا علىّ وقال:

أحَـنُّ إلـى قومـــى وإن كنت نائِيـــاً
بأنـى قطيـن البـيت عنـــد المشاعـــر
فكفوا من الوَجْـدِ الـذى قد شجاكـمُ
ولا تعملـــوا فى الأرض نصّ الأباعـــر
فإنـى بحمـد اللـــه من خيـــر أسرة
كرام معـــدّ كابـــراً بعـــــد كابــــــر

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤١
(٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤١

قال: فانطلق الكلبيون وأعلموا أباه فقال: ابنى ورب الكعبة ووصفوا له موضعه وعند من هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل بفدائه، وقدما مكة فسألا عن النبى(ﷺ) فقيل هو فى المسجد، فدخلا عليه، فقالا: ياابن عبد الله، يا ابن عبد المطلب، ياابن هاشم، ياابن سيد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه وسدنة بيته

تفكون العانى وتطعمون الأسير جئناك فى ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه فإنا سنرفع لك فى الفداء قال: ماهو ؟ قالوا: زيد ابن حارثة. فقال رسول الله(ﷺ): فهل لغير ذلك؟ قالوا: وماهو؟ قال ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا. قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت قال: فدعاه، فقال: هل تعرف هؤلاء؟قال: نعم، قال: من هما؟ قال: هذا أبى وهذا عمى، قال: فأنا من قد علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما. فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدا أنت منى بمكان الأب والأم.

وفى رواية: والعم بدلا من الأم.

فقال: ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟

قال: نعم؛ إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا.

فلما رأى ذلك رسول الله(ﷺ) أخرجه إلى الحجر فقال:(يامن حضر اشهدوا أن زيدا إبنى أرثه ويرثنى، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، فدُعِى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام.)(١) .

---

(١)الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٤١ ــ ٤٢

ويفهم من ظاهر كلام ابن سعد أن التبنى ألغى فى أول الإسلام، ولكن الأمر ليس كذلك، وإنما ألغى التبنّى فى السنة الرابعة أو الخامسة من الهجرة لأنه ذكر فى سورة الأحزاب وهى مدنية..

***

زيد فى بيت محمد(ﷺ)

كان لقاء زيد بأبيه وعمه وتفضيله البقاء فى بيت النبوة على العودة إلى الأهل والعشيرة قبل أن يبعث النبى(ﷺ) بسنوات.

ويلاحظ أن نشأة زيد فى بيئته العربية الأصيلة ثم فى بيت السيدة خديجة رضى الله عنها أكسبته أخلاقا فاضلة وخلالا حميدة جعلت النبى(ﷺ) قبل البعثة يستوهبه من خديجة فوهبته له.

فاجتمع فى زيد بهذا شرف المحتد وكرم الأصل وحسن الرعاية والتأديب، فلا عجب أن ينشأ زيد بطلا عظيما وفاضلا كريما.

***

إسلام زيد

وقد أسلم زيد في اللحظة الأولى من بعثة محمد (ﷺ) قال ابن إسحاق: إن علياً أسلم بعد خديجة ثم أسلم بعده زيد ثم أسلم أبو بكر، وكان زيد جنديّاً من جنود الإسلام وداعية من دعاته وقائدا من قواده، وكان يلازم رسول الله(ﷺ) في غدوّه ورواحه، واستشهد في معركة مؤتة سنة ٨هـ .

هذه نبذة يسيرة عن حياة زيد بن حارثة عرفنا من خلالها أن زيدا لم يكن من الموالي في الأصل، وإنما هو عربي أصيل، ثم حدثت تطوّرات في حياة زيد الاسُرِيَّة، إذ تبنّاه رسول الله(ﷺ) عندما اختاره زيد على والده وأهله كما تقدم.

فكان زيد بعد ذلك يُدْعَى زيد بن محمد كما ثبت في صحيح البخاري[١] وغيره من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما(..أن زيد بن حارثة مولى رسول الله(ﷺ) ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن«ادْعُوهُم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ..»)[٢] وقد فهم المستشرق«مونتجومري وات» بأن سبب تسمية زيد بن حارثة زيد بن محمد هو زواج النبي (ﷺ) بخديجة وتربى زيد في حجرها، وليست تسميته لأن محمدا أعتقه وتبناه، إذ يقول في كتابه(محمد في المدينة) مانصه:

(وربما أصبح زيد بن حارثة ابن محمد حين تزوج خديجة وليس حين أطلقه محمد...)[٣] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير ، وانظر فتح الباري ج ٨ ص ٥١٧

(٢) سورة الأحزاب آية ٥

(٣) محمد في المدينة ص ٤٣١

وهذا الكلام غير صحيح لأن عادة التبنى كانت مشهورة فى الجاهلية، ثم الحادثة المشهورة التى تقدم ذكرها وهى اختيار رسول الله(ﷺ) على والده وأهله، فكافأه رسول الله(ﷺ) على ذلك بأن أعتقه وتبناه وقال: (يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابنى أرثه ويرثنى..).

***

ظاهرة التبنى فى الجاهلية

التبنّي: هو أن يتخذ أحد ابن غيره ابناً له، ويعطيه من الحقوق ما يُعطيه لابنه الحقيقى، ومن ظواهر التبنى: أن أحكامه تقضى بالتوارث بين الأب وابنه بالتبنى، فكأنه ابنه الحقيقى كما فى قول رسول الله(ﷺ) المتقدم(اشهدوا أن زيدا ابنى أرثه ويرثنى)، وقول الرسول (ﷺ) هنا ليس شرعا سماويا لأن ذلك كان قبل البعثة استصحابا للحال الذى عليه أهل زمانه، فلا يعتبر هذا دليلاً على مشروعية التبنى فى الإسلام.

ومن أحكام التبنى أنه يسرى الحكم فى المحرمات، فزوجة الابن المتبنّى مثلا تحرم على أبيه المتبنّى.

ولما فى هذه الأحكام الجاهلية من الإضرار بالحقوق الأُسَرِيَّةِ وإقامة العلاقات العائلية على غير وضعها الطبيعى، ولما ينشأ عنها من الأضرار والمفاسد جاء الإسلام بإبطال التبنّى، وإذا بطل التبنّى بطل ما يتعلق به من أحكام، ولكن سياسة التشريع الإلهى تأتى بالتدرج فى الأحكام للتخفيف على الناس ولما كان التبنّى وأحكامه الجاهلية متأصلة فى نفوس الناس، فمن الصعب أن تزول بين عشية وضحاها، وأن تختفى أحكامه فجأة دون أن يكون للناس قدوة مُثْلَى تباشر تغيير ذلك بنفسها وتكسر الطوق المستحكم فى رقاب الناس ومشاعرهم تجاه أمر أَلِفُوه فى جاهليتهم وأول إسلامهم.

ولهذا ألهم الله تعالى رسوله(ﷺ) بأن يبدأ معالجة الموضوع على مراحل:

مراحل إلغاء التبنى:

المرحلة الأولى : التمهيد بتزويج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش وهى: بنت عمة الرسول (ﷺ)، وهذا الزواج له أغراض متعددة ولكن أبرزها غرضان أساسيان:

الغرض الأول :

إلغاء الفوارق الطبقيّة التى كانت موجودة فى الجاهلية، ومنها: أن الذى جرى عليه الرق يوما من الأيام لو تحرر بعد ذلك غير مكافئ للحر الذى لم يجر عليه الرق،وهذه ظاهرة متأصلة فى العرب حتى ولو كانوا مسلمين، وخير شاهد على هذا ممانعة زينب وأخيها فى بداية الأمر من زواجها بزيد بن حارثة، والإسلام يريد أن يجعل التقوى هى ميزان التكافؤ:(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)(١).

(إذا أتاكم من تَرْضَوْنَ خُلقَه ودينه فزوّجوه....)(٢).

الغرض الثانى :

إنَّ هذا الزواج كان مقدمة لتشريع آخر تمثل فى زواج النبى(ﷺ) بزينب بعد طلاقها من زيد، إبطالا لما كانوا يعتقدونه من حرمة زوجة الابن بالتبنّى، وإن كانت هذه الحكمة غير واضحة فى بداية الأمر بالنسبة لزيد وزينب وربما حتى لرسول الله (ﷺ)؛ لأنه من الجائز أنه لم يأته الوحى بذلك ، وإنما كان إلهاماً إلهياً؛ والله تعالى إذا أرادشيئاً هّيأ له الأسباب.

المرحلة الثانية : نزول القرآن بالنهى عن التبنى قال تعالى:(..وَمَا جَعَلَ

---

(١)سورة الحجرات الآية ١٣

(٢)أخرجه الترمذى فى سننه ــ كتاب النكاح ــ باب ما جاء: إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه.
وأخرجه ابن ماجه فى كتاب النكاح ــ باب الأكفاء.
ورواه الحاكم وقال: صحيح، كما فى فيض القدير للمناوى ج ١ ص ٢٤٣.

أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ، ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُم»[١] .

وتقدم حديث ابن عمر ماكنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن(ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) ومن ثم نادى رسول الله (ﷺ): يامعشر المسلمين إن زيد بن محمد أصبح من اليوم يُدْعَى زيد بن حارثة، وصحّح رسول الله(ﷺ) هذه الحالة وأرجع زيدا إلى نسب أبيه امتثالا لأمر الله تعالى،ولما نزلت هذه الآية اشتد حزن زيد وقال: أنا زيد بن حارثة، ولكن الله تعالى جبر قلبه وآنس وحشته إذ شرّفه بأن سماه فى القرآن الكريم حتى صار اسمه قرآناً يُتْلَى، فقد نوّه به غاية التّنويه فكان فى هذا تأنيس له وعوض عن الفخر بأبوة سيدنا محمد(ﷺ)، ألا ترى إلى قول أُبَىّ بن كعب حين قال له النبى(ﷺ): إن الله تعالى أمرنى أن أقرأ عليك سورة كذا، فبكى أُبَىّ وقال أو ذكرت هنالك[٢] ، وكان بكاؤه من الفرح حين أخبره أن الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآنا يتلى فى قوله تعالى(.. فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ منهاوَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا).

المرحلة الثالثة: إبطال ما يتعلق بالتبنّى من أحكام إبطالًا عملياً، وذلك بأن تزوج رسول الله (ﷺ) زينب بنت جحش وكانت زوجة ابنه المُتَبَنَّى(زيد) فعندما طلقها زيد وانقضت عدتها منه تزوجها رسول الله(ﷺ) كسراً لطوق العادة المستحكمة فى نفوس الناس فى حرمة حليلة الإبن المُتَبَنَّى. ولما تزوّجها رسول الله(ﷺ) طفحت نفوس المنافقين بالنفاق، وقالوا: تزوج محمد حليلة ابنه فأنزل الله تعالى:

---

(١)سورة الأحزاب آية ٤ ــ ٥

(٢) انظر فتح البارى ج ٧ ص ٦٩

«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ»[1] . فزينب ليست حليلة ابنه على الحقيقة، وزيد ليس ابن محمد، وإنما هو فى الحقيقة ابن حارثة، وإذن فلا حرج فى هذا الزواج إذا نظر إليه بعين الحقيقة الفاحصة، وقد جاء التشريع فى المحرمات واضحا جلياً فى سورة النساء فقال تعالى:

«..حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ـ إلى قوله ـ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ..»[2]

وقد جاء التنصيص على أبناء الأصلاب ليبيّن بطريق المفهوم أن حلائل الأبناء الأدعياء غير داخلات فى هذا التحريم، كما كانت العرب تعتقد ذلك.

هذه مراحل إلغاء التبنّى حصرتها بطريق الاستقراء لوقائع الأحداث التى كانت فى تلك الفترة مما له صلة بهذا الموضوع.

وسنبدأ بذكر زواج زيد بن حارثة بزينب، ثم زواج الرسول(ﷺ) بها بعد طلاقها من زيد، ولكننى أرى أن أضع بين يدى ذلك ترجمةً موجزة لزينب رضى الله عنها.

ترجمة زينب بنت جحش:

هى زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مُرّة ابن كبير بن غنم بن داود بن أسد بن خزيمة، وأمها أُميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بنى قُصَىّ..

قال ابن سعد: قدم النبى(ﷺ) المدينة وكانت زينب بنت جحش ممن هاجر مع رسول الله(ﷺ) إلى المدينة، وكانت امرأة جميلة

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠

(٢) سورة النساء آية ٢٣

فخطبها رسول الله (ﷺ) على زيد بن حارثة فقالت: يارسول الله لا أرضاه لنفسى وأنا أيِّم قريش، قال: فإنى قد رضيته لك.. فتزوّجها زيد ابن حارثة(١).

وكانت تسمى برة فسماها رسول الله(ﷺ) زينب عندما تزوجها.. ووصفها النبى(ﷺ) بأنها أوّاهة..

فعن عبد الله بن شداد أن رسول الله (ﷺ) قال لعمر ابن الخطاب:إن زينب بنت جحش أوّاهة فقال رجل: يارسول الله ماالأوّاه؟ قال: الخاشع المتضرع، إن إبراهيم لحليم أوَّاه منيب، وقالت عائشة رضى الله عنها: كانت زينب هى التى تسامينى من أزواج النبى(ﷺ)، ولم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب إلى الله عز وجل ماعدا سَورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفيئة اخرجه مسلم(٢).

السَّورة: أى ثورة الغضب، الفيئة: أى الرجعة.

وكانت تفخر على أزواج النبى(ﷺ) بتزويج الله إياها من فوق سبع سموات(٣).

وروى ابن جرير عن الشعبى قال: كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبى(ﷺ): إنى لأدل عليك بثلاث مامن نسائك امرأة تدل بهن: إن جدى وجدك واحد، وإنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير لجبريل عليه السلام(٤).

---

(١)الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ١٠١ وانظر ترجمتها فى الإصابة لابن حجر ج ٤ ص ٣٠٧، والروض الأنف للسهيلى(٣٦٨/٢) ط الأولى.

(٢)صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٩٢

(٣)انظر فتح البارى ج ٨ ص ٤٠٢ وسنن الترمذى ج ٨ ص ٣٤٨

(٤) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ١٤ ط الحلبى الثانية.

وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم زينب بطول اليد، كناية عن الصدقة، فقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله (ﷺ) قال: «أسرعكن لحوقا بى أطولكن يدا، قالت فكن يتطاولن أيهن أطول يدا قالت وكانت أطولنا يدا لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق» أخرجه مسلم.

وفى رواية أخرى عن عائشة أيضا قالت: قال رسول الله(ﷺ) لأزواجه: « أولكن يتبعنى أطولكن يدا» قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا بعد رسول الله(ﷺ) نمد أيدينا فى الحائط نتناول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش.. وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا، فعرفت أن النبى(ﷺ) أراد بطول اليد الصدقة وكانت امرأة صناعا وكانت تعمل بيدها وتتصدق به فى سبيل الله(1).

وكانت زينب رضى الله عنها امرأة زاهدة، فقد روى أن عطاءها من بيت المال فى عهد عمر بن الخطاب بلغ اثنى عشر ألف درهم ولم تأخذه إلَّا عاما واحدا، حمل إليها اثنى عشر ألف درهم فجعلت تقول: اللهم لايدركنى قابل هذا المال فإنه فتنة ثم قسمتهُ فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة حتى أتت عليه فبلغ عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال: قد بلغنى مافرقت فأرسل إليها بألف درهم تستبقيها فسلكت بها الطريق الأول نفسه.

وتوفيت زينب رضى الله عنها وكانت كما أخبر النبى(ﷺ) أول نسائه لحوقا به. وكانت وفاتها سنة عشرين من الهجرة وعمرها ثلاث وخمسون سنة.. ولما توفيت زينب رضى الله عنها قالت عائشة: ذهبت حميدة فقيدة مَفزع اليتامى والأرامل(2)..

---

(1) الطبقات لابن سعد ج ٨ ص ١٠٨، والسمط الثمين ص ١٢٨

(2) الطبقات ج ٨ ص ١١٠ بتصرف يسير.

زواج زيد بزينب، أغراضه واهدافه:

(أ)أغراض هذا النوع من الزواج:

١ ــ إلغاء الفوارق الطبقية كما تقدم..

٢ ــ إنه كان مقدمة لتشريع آخر يقوم عليه، وإن لم تعلم الحكمة فى بداية الأمر للزوجين..

٣ ــ مكافأة زيد بن حارثة على ماقدمه من تضحيات، وما تعرض له من متاعب فاختار معها كلها صحبة رسول الله(ﷺ) على والده وأهله والناس أجمعين.. فأراد رسول الله (ﷺ) أن يكافئه بتزويجه بزينة الهاشميات.. زينب بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب وهى من أشراف نساء قريش حتى لقد سمعت وهى تقول:(أنا سيدة أبناء عبد شمس..)[1]

وفى هذا رفع لمعنويات زيد وطمس لما علق فى ذهنه وشعوره من أوضار الرق، وقد برهن رسول الله (ﷺ) على وفائه لزيد برهانا عمليا فى هذا الزواج كما برهن من قبل باتخاذه ابناً له.

(ب) خطبة الرسول (ﷺ) زينب لزيد بن حارثة:

تشير المصادر التاريخية إلى أن رسول الله (ﷺ) خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة.

فقد روى أبو نعيم الأصبهانى فى(حلية الأولياء)[2] بالسند المتصل إلى زينب قالت: خطبنى عدة من قريش فأرسلتُ أختى حمنة إلى رسول الله(ﷺ) أستشيره فقال لها رسول الله (ﷺ): (أين هى ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها (ﷺ)؟ قالت: ومن هو يارسول الله؟قال:(زيد بن حارثة).

---

(١)السمط الثمين للمحب الطبرى ص ١٢٩ ط حلب.

(٢)حلية الأولياء ج٢ ص ٥١

ولكن يبدوا أن زينب مانعت فى البداية معتزة بنسبها العربى الشريف وخشيت أن يكون فى زواجها من زيد هضم لشرفها وحط من مكانتها وأشار عليها رسول الله(ﷺ) بالزواج من زيد وأثنى عليه بما هو أهله.. فقالت زينب: يارسول الله لاأرضاه، وأنا أيّم قريش. قال: فإنى قد رضيته لك..[١]

وقد أصدقها فى هذا الزواج عشرة دنانير، وستين درهما، وخمارا، وملحفة ودرعا، وخمسين مدا من طعام، وعشرة أمداد من تمر، قاله مقاتل بن حيان كما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره[٢]...

ويذهب جمهور المفسرين وأصحاب السِّيَر إلى أن زينب وأخاها عبد الله، منعا فى البداية من قبول زواجها من زيد فأنزل الله تعالى:«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً»[٣].

وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر فى الأصول.. وعلى كل حال فقد وافقت زينب على هذا الزواج.

وفى نظرى أن الموافقة كانت مبنية على أساسين:

الأول: امتثال أمر الله تعالى وطاعة رسوله (ﷺ) فيما رغب فيه وأمر به كما فى الآية السابقة.

الثانى: أن زيد بن حارثة كان يُدْعَى زيد بن محمد فخفف ذلك عنها إلى حد كبير إذ قالت ومن أعَزُّ من زيد بن محمد؟

ولهذا استمرت العشرة بينهما فى بداية الأمر حتى أبطل الله التبنّى فصار يُقال لزيد: بن حارثة، بدلًا من زيد بن محمد، ومن هنا نشأت

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٠١

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٦

بينهما جذور الخلاف وأخذت تترفع على زيد. وقد فطن زيد لهذا الأمر بلباقة، ولم تكن نفسه الكريمة هيّنة عليه، فحاول التخلص منها وعدم إزعاجها أو إمساكها على غير رضى أو عشرة زوجية حميدة أخذاً بآداب الإسلام(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)، قد يقول قائل: بأن آية التبنّى متقدمة فى أول سورة الأحزاب، وذكر زيد وزوجه متأخر بعد آية التبنى.

والجواب: أن زواج زيد بزينب كان فى أوائل السنة الرابعة تقريبا ونزول سورة الأحزاب كذلك فى السنة الرابعة وأوائل الخامسة.

وأما تقدم آية التبني فى الذكر فلا يلزم تقدمها فى النزول كما هو معروف فى علوم القرآن.

على أن زواج زيد بزينب وإلغاء التبنّى كانا متقاربين وفى سنة واحدة تقريبا، ولا شك أن زينب كانت تواجه فى البداية امتحاناً تشريعياً فى زواجها بزيد لأن الإسلام أراد بهذا الزواج إلغاء الفوارق الطبقية حيث جعل الكفاءةَ فى الدين . ولكن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله تأتى بأفضل النتائج وأحسن الثمار كما سيأتى من تحول حياتها بعد بؤس وشقاء إلى سعادة.

ولقد أشارت بعض المصادر إلى أن زينب مكثت عند زيد ما يقرب من سنة[١] .

ثم ساءت العلاقة بينهما فذهب زيد إلى رسول الله(ﷺ) يستشيره فى طلاقها ويشكو إليه أمرها، وأبدى رسول الله نصحه لزيد بأن يمسك زينب لعل العلاقة معها تتحسن فقال له يازيد(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللهَ)،ولكن إرادة الله غالبة وهو الذى بيده مصائر الأمور فلا بد أن تجرى الأمور وفق التوجيه الربانى لأن زواج زيد بن حارثة بزينب كان فى

---

(١)انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١

باطن الأمر تشريعاً، ويستأنس لذلك بالآية السابقة وهي قوله تعالى:«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ».

فالقضاء هنا معناه التشريع، أى إذا شرع الله ورسوله أمرا، وهذا التشريع سيقوم عليه تشريع آخر يباشره الرسول(ﷺ) بنفسه على ما فيه من ضخامة المسئولية فى أعراف الناس وشدة الوطأة فيما يتحمله (ﷺ) من مقالات المنافقين ومن لاذ بهم من ذوى الاتجاهات المنحرفة.

وقد أصبحت حياة الزوجين ـــ زيد وزينب ـــ لاتطاق ولم يكن لهما بد من الفراق، وصمم زيد على فراق زوجته زينب فطلقها وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى منها وطره ولم يبق له رغبة فى إقامة العلاقة الزوجية معها، لأنه كان كريم النفس ولا يريد أن يبنى سعادته على تعاسة الآخرين.

وقد لمس من زينب أنها تعيش فى قلق واضطراب فى حياتها الزوجية ولهذا صمم على الفراق وعدم الإضرار بها. وانتهى زواج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش على هذا الوضع دون أى تدخل خارجى بينهما مما يسبب فساد العلاقة الزوجية.

وزينب ليست هى الأولى من زوجات زيد ولا الأخيرة، فقد تزوج قبلها بأم أيمن مولاة رسول الله(ﷺ) فولدت له أسامة بن زيد.

وتزوّج بعد زينب من كرائم نساء قريش، فقد أورد الحافظ ابن حجر فى الإصابة فى ترجمة زيد بن حارثة ما نصه:

(وقال ابن الكلبى عن أبيه عن أبى صالح عن ابن عباس لما تبنّى رسول الله(ﷺ) زيدا زوَّجه زينب بنت جحش وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وزوّجه النبى (ﷺ) قبل ذلك مولاته أم أيمن فولدت له أسامة، ثم لما طلق زينب زوّجه أم كلثوم بنت عقبة وأمها

أروى بنت كريز،وأمها البيضاء بنت عبد المطلب فولدت له زيد بن زيد، ورقية ، ثم طلق أم كلثوم وتزوج درّةَ بنت أبى لهب بن عبد المطلب ثم طلقها وتزوج هنداً بنت العوام أخت الزبير)[١] ..؟

زواج النبى(ﷺ) بزينب بنت جحش:

قضت سنة الله فى خلقه أن مارسخ فى النفس بحكم العادة لايسهل عليها التخلص منه إلا بكلفة ومشقة.. ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات وأعتقه من رق الشهوات وجعل همته فوق المألوفات، وذلك هو النبى محمد(ﷺ) ومن يختصه الله بالتأسى به؛ لهذا كان الأمر إذا نهى الله تعالى عن مكروه ــ بادر النبى إلى الامتثال بإتيان المأمور به حتى يكون قُدْوَة حسنة ومثَالاً صالحا تحاكيه النفوس وتحتذيه الهِمَم وحتى يخف وِزْر العادة، وتخلص العقول من ريب الشبهة[٢] .

وظاهرة التبنّى كانت متغلغلة فى نفوس الناس ومشاعرهم، وليس من السهل التغلب عليها، دون كسر لطوقها وخرق لمألوفها على يد المَثَل الكامل والقُدْوَة الحسنة للناس؛ ولهذا كان لابد من مباشرة ذلك من إمام الأمة وقائدها ليكون أدعى للاستجابة وأسرع فى التنفيذ وأحكم فى القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية المضرة بكيان الأسر والمجتمعات فى بنائها على غير وضعها الطبيعى، وهل يقوم على مخالفة مألوف العرب وتحطيم أغلالهم ونبذ خرافاتهم إلا رجل ملك الإيمان نفسه وملأ الحق قلبه وتغلغلت فيه الشجاعة الخلقية، فوصلت منه إلى اللُّبّ والشغاف؟ ذلك هو الرسول الكريم محمد (ﷺ)، لقد باشر ذلك

---

(١)الإصابة ج ٢ ص ٦٠٠ط نهضة مصر.

(٢)من كلام الإمام محمد عبده فى مقال له، بتصرف.

بنفسه سَنّاً للشرائع، وإيضاحاً لأمور الدين، وتبيانا للعالمين ، وتصحيحاً لأوهام الناس وأعرافهم وصهرها فى قالب الحق والعدالة.. وقد خرج النبى (ﷺ) على مألوف العرب وغيّر وجهة أحوالهم ومعتقداتهم، لأنهم كانوا يدعون للدَّعيِّ ما للابن من الحقوق من إرث ونسب ورسخ ذلك فى أذهانهم حتى حطّم النبى(ﷺ) ذلك بنفسه الطاهرة الشريفة..

الحكمة فى زواج النبى (ﷺ)بزينب:

لاشك أن زواج النبى(ﷺ) بزينب لم يكن مبعثه العاطفة كما يتصورّ بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام أو ذوو الغفلة.. من المسلمين ، وهذا باعتراف كثير من المستشرقين الذين تاه بهم الخيال فى بعض الجوانب الأخرى من حياة الرسول الأعظم محمد (ﷺ):

فالمستشرق«مونتجومرى وات» فى كتابه محمد فى المدينة يقول: «ليس من المبالغة القول بأن جميع زيجات محمد كان لها هدف سياسى، لنا الحق إذن فى القول بأن محمدا فى قصة زينب بنت جحش لم يذهب ضحية حب عنيف بل رأى بوضوح الفوائد السياسية لهذا الزواج».

ثم يقول فى مكان آخر..«وبالرغم من القصص العاطفية من البعيد أن يكون محمد قد أُسِرِ بمفاتن زينب الجسدية..»(١).

والحقيقة أن هناك حِكما خاصة بزواج النبى بزينب غير الحكم العامة التى تشترك فيها زينب مع أمهات المؤمنين الأخريات ، ويمكن أن نلخص أهم تلك الحكم والبواعث لزواج النبى(ﷺ)بزينب فيما يلى:

١ ــ الحكم التشريعية: فى إبطال التبنّى، وبالتالى إبطال ما يتعلق

---

(١)محمد فى المدينة ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥

به من أحكام كحرمة زوجة الابن المُتبنَّى على أبيه المتبنِّى.

وقد أبطل النبى(ﷺ) ما كان قائما من أحكام التبنّى هدمه بالوحى القرآنى كما هدمه بالسنة التطبيقية العملية،واستمع إلى قوله تعالى فى حكمة هذا الزواج..«..فلما قَضَى زَيْدٌ منها وَطَراً زَوَّجْناكها لكيلا يكون على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً.»(١) فقد نصت الآية على عدم حُرمة زوجة الابن الدَّعِى إذا قضى منها وطره وطلقها فكان هذا تشريعاً عاماً.

٢ ــ اكتمال عوامل هذا التشريع فى رسول الله(ﷺ) وفى زيد، إذ كان يقال لزيد، زيد بن محمد وهذا عن طريق التبنّى كما أن زيدا تزوج بزينب ثم طلقها برغبته لما قضى منها وطره.

وقد لاتجتمع هذه العوامل من جوانبها المختلفة فى غير النبى(ﷺ) وزيد وزينب فى تلك الظروف الراهنة التى تحتاج إلى استقرار التشريع وترسية قواعد العدل، وإقامة نظم الحياة الاجتماعية والعلاقات الأسرية على وجهها الصحيح، وربطها بالمجتمع فى صورة واضحة جلية دون مخالفة لقوانين الأسر الطبيعية التى اختارها الإسلام وأرساها بين بنى البشر على أسسها الصحيحة.

٣ــ كون الرسول(ﷺ) هو القُدْوَة المُثْلَى للأمة، وفعله لهذا الأمر بنفسه أدعى للقضاء على تلك الظاهرة المتغلغلة فى النفوس والمشاعر، فإن وقوع هذا من إمام المسلمين الأعظم أدعى لقبولهم وأسرع لحسم تلك الظاهرة الاجتماعية التى غيّرت كثيراً من الحقائق وحرمت الكثير من الحقوق،وقد كان رسول الله(ﷺ) إذا أمر بشئ أو دعا إليه حاول تطبيقه على نفسه الشريفة وعلى أقاربه وخاصته،وخير شاهد على هذا أن الرسول صلى(ﷺ) نادى فى حجة الوداع بحرمة

---

(١)سورة الأحزاب آية ٣٧

الربا، والربا منتشر فى البيئات الاجتماعية الجاهلية بشكل خطير، ولكن رسول الله(ﷺ) اتبع سياسة حكيمة فى حجة الوداع، وأراد أن يبدأ بأقرب الناس إليه ،فكان أول ربا وضعه (ﷺ) ربا عمه العباس حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه فيسهل عليهم ترك أموالهم.. وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم،كما أن هناك حادثة مشهورة فى غزوة الحديبية عند ما أمر رسول الله أصحابه بالتحلل من الإحرام والحلق ونحر الهدْى،فقد أخرج البخارى وأبو داود عن المسور ابن مخرمة ومروان فى حديث الحديبية أنه (ﷺ) بعد أن فرغ من الكتاب الذى تضمن شروط الصلح قال (ﷺ) لأصحابه رضى الله عنهم:«قوموا فانحروا ثم احلقوا؛ فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة رضى الله عنها فذكر لها مالقى من الناس فقالت: يانبى الله أتحب ذلك؟ اخرج ولا تكلم منهم أحدا حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فصنع الذى قالت، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما»[١].

ومن هنا نعلم أن فعل الآمر لما يأمر به عامل كبير فى تنفيذ أتباعه لتوجيهاته وتعاليمه لاسيما إذا كان قدوة حسنة ومثلا أعلى،وقديما قال الشاعر:

وإنك إذ ما تأت ماأنت آمر ... به تلف من إيّاه تأمر آتيا

٤ــ مكافأة زينب على طاعتها الأولى لله ولرسوله وامتثالها للأمر بالزواج من زيد رغم ما تواجه من ظروف اجتماعية صعبة ولكنها فى النهاية رضيت بما رضى لها رسول الله (ﷺ)تاركة نبزات الناس

---

(١)انظر فتح البارى ج ٥ ص ٢٥٦ ط دار المعرفة بيروت

وهمساتهم جانبا، وهذه تضحية أرادت بها إرضاء الله تعالى وامتثال أمر رسوله وتحقيق رغبته، فجنت ثمار التقوى والطاعة،وفازت بشرف الدنيا والآخرة..إذ تزوّجها رسول الله(ﷺ)وأصبحت فى تعداد أمهات المؤمنين.

٥ــ ربما شعرت زينب بأنها قد حطّت من مكانتها وهى سيدة أبناء عبد شمس فإذا هى زوجة مولى جرى عليه الرق يوماً من الأيام، وكان هذا الأمر مما تستعيبه العرب، فكان هذا الزواج رفعاً لمكانتها وسمواً بشخصيتها التى كانت تطمح إلى الذوائب من قريش قبل ذلك، فحقق الله لها الزواج من سيد الأولين والآخرين رسول الله(ﷺ).

ولا يمكن أن يرقى بها وبنفسيتها الكبيرة إلا رسول الله(ﷺ)،وربما أدرك ذلك رسول الله فكان عاملا من عوامل زواج النبى(ﷺ)بزينب.

وحتى بعض المستشرقين يرى هذا المنزع فى بواعث هذا الزواج يقول المستشرق«مونتجومرى وات»:«ربما أدرك محمد أن زينب مَلّتْ زيداً وليس هناك من رجل يليق بأن يصبح زوجاً لها»[١] يعنى غيررسول الله(ﷺ)، هذه بعض الحكم والبواعث لزواج النبى(ﷺ) بزينب.

خطبة النبى صلى الله عليه وسلم زينب لنفسه:

روى الإمام أحمد[٢] ومسلم[٣] والنسائى عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله(ﷺ) لزيد اذكرها علىّ، قال فانطلقت فقلت يازينب أبشرى أرسل رسول الله(ﷺ) يذكرك فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله(ﷺ) حتى دخل عليها بغير إذن.

(١)محمد فى المدينة ص ٥٠٥ (٢)مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٩٥ ط الحلبى

(٣)صحيح مسلم ١٦ كتاب النكاح.

لماذا اختار رسول الله(ﷺ) زيداً وسيطا فى خِطْبَةِ زينب؟

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:«وهذا أيضا من أبلغ ماوقع فى ذلك، وهو أن يكون الذى كان زوجها هو الخاطب لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضا اختبار ما كان عنده منها هل بقى منه شئ أم لا[1].

كيف تم زواج النبى(ﷺ) بزينب؟

يذكر ابن هشام فى السيرة النبوية أن رسول الله(ﷺ) تزوج زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية،زَوَّجَهُ إياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله (ﷺ) أربعمائة درهم... إلخ [2]، ولكن السهيلى تعقبه فى الروض الأنف[3] فقال:« وذكر زينب بنت جحش وأن أخاها أبا أحمد هو الذى أنكحها من رسول الله(ﷺ) وهذا خلاف ما ثبت فى الحديث أنها كانت تفخر على صواحبها وتقول زوجكن أهلوكن من رسول الله وزوّجنى رب العالمين من فوق سبع سموات.. وفى آخر أنه لما نزلت الآية...«زَوَّجْنَاكَهَا» قام رسول الله(ﷺ) فدخل عليها بغير إذن» انتهى كلام السهيلى.

والآية صريحة فى أن الله تعالى هو الذى زوّج رسوله (ﷺ) بزينب وزينب تحكى قصة زواجها من رسول الله(ﷺ) حيث قالت:« فلما انقضت عدتى ــ أى من زيد ــ لم أعلم إلا ورسول الله(ﷺ) قد دخل علىّ بيتى وأنا مكشوفة الشعر فعلمت أنه أمر من السماء

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٤٠٤
(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٥٤
(٣) الروض الأنف للسهيلى شرح السيرة ج ٤ ص ٢٦٨

فقلت يارسول الله بلا خطبة ولا إشهاد؟ فقال:« الله زوّج وجبريل الشاهد»[1].

تزوج النبى(ﷺ) بزينب وكسر طوق العادة الجاهلية المستحكمة فى نفوس الناس ومشاعرهم.

وكان هذا الزواج تشريعاً محكماً ذكره الله فى كتابه وبيّن حكمته للخاصة والعامة فى نص واضح صريح« لكى لايكونَ على المؤمنينَ حَرَجٌ فى أَزْواجِ أَدْعِيائهم إذا قَضَوْا منْهُنَّ وَطَراً».

وقد طفحت نفوس المنافقين بالنفاق وتحدثوا مع من سار فى ركابهم قائلين: نهانا محمد عن حلائل أبنائنا وسمح لنفسه بالزواج من حليلة ابنه.

ولما كانت هذه المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد فقد مضى القرآن الكريم يؤكدها.. ويزيل عنصر الغرابة فيها ويردها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية:

«مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فيما فَرَضَ اللهُ لَهُ»[2] فقد فرض الله له أن يتزوج زينب وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء، وإذن فلا حرج فى هذا الأمر مادام الله تعالى هو الذى فرضه وألزم به رسوله (ﷺ)، علما بأن زيداً ليس ابناً لمحمد على الحقيقة كما أن زينب ليست حليلة ابنه(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وخاَتَمَ النَّبِيِّين»[3].

متى كان زواج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب؟

رجح الحافظ ابن كثير فى كتابه البداية بأن زواج النبى (ﷺ)

(١)حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ج ٢ ص ٥٢

(٢)سورة الأحزاب ٣٨ (٣)سورة الأحزاب ٤٠

بزينب كان سنة خمس من الهجرة حيث قال(...قال قتادة والواقدى وبعض أهل المدينة: تزوجها عليه السلام سنة خمس،زاد بعضهم فى ذى القعدة، قال الحافظ البيهقى: تزوجها بعد بنى قريظة، وقال خليفة ابن خياط سنة ثلاث، والأول أشهر، وهو الذى سلكه ابن جرير وغير واحد من أهل التاريخ..)(١) وقال صاحب سمط النجوم العوالى:(تزوجها النبى(ﷺ) هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة وهى بنت خمس وثلاثين سنة يومئذ» كذا فى مختصر سيرة البرماوى.

وقال فى المواهب:سنة خمس..(٢)

والذى يترجح فى نظرى ما رجحه ابن كثير لأن سورة الأحزاب نزلت فى السنة الرابعة، وفيها إلغاء التبنّى، وقد مكثت زينب عند زيد ما يقرب من سنة كما تقدم. وهذه الأمور كلها سابقة لزواج النبى(ﷺ) بزينب.

ولهذا نرجّح أن يكون زواجه بزينب فى السنة الخامسة أخذاً من وقائع الحوادث التى كانت فى تلك الفترة.

وقد نقل ابن سعد فى الطبقات آثاراً تؤيد هذا(٣).

الشبهات التى أثيرت حول زواج النبى(ﷺ) بزينب

كان زواج النبى(ﷺ) مثار جدل قديماً وحديثاً بناء على الأخبار التى دست فى التراث الإسلامى فى هذا الموضوع ويمكن أن نلخص الشبه التى أثيرت فى هذا الموضوع عن طريق الاستقراء كما يلى:

الشبهة الأولى:

قالوا إنه تزوج حليلة ابنه مع نهيه عن حلائل الأبناء؟

---

(١)البداية لابن كثير ج ٤ ص ١٤٥، والسيرة النبوية ج ٣ ص ٢٧٧

(٢)سمط النجوم العوالى ج١ ص ٣٨٧ (٣)انظر طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١١٤

الرد على هذه الشبهة!!

تقدم القول بأن زيداً ليس ابن محمد على الحقيقة وإنما هو ابن حارثة كما أن زينب ليست حليلة ابنه على الحقيقة وإنما هى زوجة زيد ابن حارثة.

قال تعالى:«وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُم أَبْنَاءَكُم ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ واللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ»[1].

وقال تعالى«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ»[2].

أما نهى الإسلام عن حلائل الأبناء فالأمر واضح بأنه يراد من النهى تحريم حلائل الأبناء الحقيقيين. ولا يدخل الأبناء الأدعياء فى هذا بدليلين ظاهرين:

الأول: زواج النبى(ﷺ) بزينب وهو صاحب الرسالة والمبلغ عن الله تعالى، فلا يمكن أن يخالف أمر الله تعالى ولا أن يتقوّل على الله مالم يشرع. واستمع لقول الله تعالى:«ولو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ باليَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ[3]».

ومباشرة النبى(ﷺ) بنفسه هذا العمل بالسنة التطبيقية العملية ليبين للناس عدم حرمة حليلة من كان يدعى ابناً بالتبنى إذا طلقها وانقضت عدتها..

الثانى: أن النص القرآنى فى المحرمات جاء صريحاً فقال تعالى:«وحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ»[4]. فالقيد فى الآية لم يكن عفوياً وإنما يراد منه حلائل الأبناء غير الأدعياء.

---

(١)سورة الأحزاب آية ٥ (٢)سورة الأحزاب آية ٤٠

(٣)سورة الحاقة آية ٤٤ ــ ٤٧ (٤)سورة النساء آية ٢٣.

فمفهوم المخالفة من الآية كما ترى أن حلائل غير الأبناء الأصلاب غير داخلات في المحرمات، وهذا الأمر بحمد الله واضح.. فلا شبهة في أن النبي(ﷺ) تزوج بزوجة ابنه،لأن هذا لم يكن على وجه الحقيقةوالواقع.

الشبهة الثانية:

قالوا: إن الرسول تزوج بزينب نتيجة للحب الذى وقع فى نفسه عند رؤيته لها. ومستمسك أصحاب هذه الشبهة ماورد من الروايات الدخيلة فى هذا الموضوع كقوله: إن الرسول (ﷺ) جاء إلى منزل زيد فلم يجده ورأى زينب وكانت بيضاء جميلة ــ فأعجبته ووقع حبها فى قلبه...الخ..

والرد على هذه الشبهة يكون بنسف هذه الروايات الساقطة والقطع بعدم صحتها ، بل من الدسائس التى أدخلت فى التراث الإسلامى، سواء أكان صاحب هذه الدسيسة«يوحنا الدمشقى» كما تقدم، أم كان بعض الشعوبيّين الحاقدين على الإسلام.

وعلى هذا فلا يصح أن يقام عليها بناء من الوهم والتشكيك فى نزاهة أنبياء الله ورسله.

وقد أوضحت فى دراسة الأسانيد التى قامت عليها هذه الروايات بأنها واهية.. ساقطة.

وما دامت الرواية غير صحيحة فلماذا نكلف أنفسنا التماس بعض العلل والتفسيرات الدالة على عصمة الأنبياء؟

علماً بأن النص القرآنى صريح فى حكمة هذا الزواج ومشروعيته حتى إن الله تعالى هو الذى تولى هذا الزواج بنفسه تبرئة لرسوله (ﷺ) مما سيقوله المنافقون والحاقدون على رسول الإسلام فقال تعالى:«فَلَمَّا

قَضَى زَيْدٌ مِنْهاَ وَطَراً زَوَّجْنَاكَهاَ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا».

الشبهة الثالثة:

قالوا: إن الله تعالى أشار إلى هذه العلاقة القلبية بين الرسول (ﷺ)وزينب، ولهذا عاتب الله رسوله على كتمان ذلك الميل النفسى لزينب وإخفائه هذا الأمر في نفسه عندما استشاره زيد في طلاقها فقال تعالى:« وإذ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»(١) .

وقد فسر هؤلاء الآية بأن الذى كان يخفيه الرسول (ﷺ) فى نفسه هو حب زينب ورغبته الأكيدة فى طلاقها من زيد ليتزوجها بعده.

والرد على هذه الشبهة من وجوه متعددة:

الوجه الأول:

أن تفسير الآية على هذا المعنى خطأ واضح وخروج بالآية عن معناها الحقيقى وتحميل لها بما لا تحتمله.

فأما المعنى الصحيح فى تفسير الآية فهو كما يلى:

«وَإِذْ تَقُولُ» يامحمد«لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ» بالإسلام «وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» بالعتق والتربية والعطف. تقول له عندما جاء مُستشيراً لك فى طلاق زوجته زينب«أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ» فى الإقدام على طلاقها أو الوقوع فى عرضها بأنها تؤذيك بلسانها وتسئ عشرتك الزوجية..«وَتُخْفِى فى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ» أى وتخفى ما أعلمك الله به من قبلُ من أن زيدا سيطلّقها وأنك ستتزوّجها بعده هَدْماً لظاهرة

(١)سورة الأحزاب آية ٣٧

التبنّى وتشريعاً للأمة«لِكَيْلَا يَكُونَ على المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فى أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً» وتخفى ذلك على زيد مراعاة لشعوره وحياء منه مع أن الله تعالى سيبدى هذا الأمر لا محالة ويظهره إلى حيز الوجود.

«وتَخْشَى النَّاسَ» أن يقولوا تزوج حليلة ابنه«والله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» فهو الذى بيده مقاليد الأمور، وهو الذى شرع لك هذا الأمر ووجّهك إليه فلا تلتفت إلى مقالة أحد من الناس مادمت فى ممارسة عمل تشريعى لإصلاح الأمة وإقامة العلاقات الأُسَرِيَّة على وضعها الصحيح، وهدم التقاليد المضرة بكيان الأسر والمجتمعات.

هذا هو المعنى العام للآية نصاً وروحاً، بدليل ما قدمنا لك فى الرواية التى حققها الأئمة الأثبات وأثنوا عليها؛ فقد أخرج ابن أبى حاتم من طريق السُّدِّىّ قال:«بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله (ﷺ)، وكان رسول الله(ﷺ) أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله (ﷺ) فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه (ﷺ) بعدُ أنها ستكون من أزواجه، فكان يستحى أن يأمر زيدا بطلاقها، وكان لايزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله(ﷺ) أن يُمْسِكَ عليه زوجه وأن يتقى الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنّى زيدا [١]، فالذى أخفاه الرسول (ﷺ) فى نفسه هو ما أخبره الله به من أن زينب ستكون زوجته بعد مفارقة زيد لها ، ولكن الله تعالى لم يأمر رسوله بابلاغ ذلك للناس وإلا ما تردد(ﷺ) فى إبلاغه ولا أخَّره ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه.

---

(١)انظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٢٣ وارجع إلى ما نقلته لك عن ابن حجر فى هذا الكتاب ص ١٧.

وقد طلّق زيد زوجته فى النهاية وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون من الأمر بعد ذلك؛ لأن العُرْف السائد كان يعُدّ زينب مطلقة ابنٍ لمحمد لاتحل له حتى بعد إبطال عادة التبنِّى فى ذاتها، ولم يكن قد نزل إحلال مطلقات الأدعيا، وإنما كان حادث زواج النبى بزينب فيما بعد هو الذى قرر هذه القاعدة بعد ما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار.

وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث، والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديما وحديثا وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات (١).

الوجه الثاني:

أن الله تعالى قال فى الآية«تُخْفِى فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه» والذى أبداه الله تعالى فى كتابه هو زواج النبى(ﷺ) بزينب بعد طلاقها من زيد؛ قال تعالى:« فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا..» ولم يبد الله تعالى فى كتابه ولا فى سنة رسوله شيئاً غير هذا مما يتقوله المغرضون فى هذه القضية.. وقد كان الباعث على إخفائه(ﷺ) لذلك حياؤه الشديد من زيد إذ كانت زينب فى عصمته ومن الصعب حقاً أن يصرح له بمفارقتها ليتزوجها، وقد كان رسول الله(ﷺ) أشد حَيَاءً من العذراء فى خِدْرِها.

ولربما كان رسول الله(ﷺ) يرجو من الله أن يخفِّف عنه هذا التكليف لشدة تحرجه مما سيقوله الناس ولكن كان أمر الله مفعولا.

قال ابن العربى رحمهُ اللهُ تعالى:«(..وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ) يعنى من نكاحك لها، وهو الذى أبداه لا سواه.

وقد علم النبى(ﷺ) أن الله تعالى إذْ أَوْحَى إليه أنها زوجته، لابد من وجود هذا الخبر وظهوره، لأن الذى يخبر الله عنه أنه كائن لابد أن

(١)نقل بعض هذا الكلام من ظلال القرآن بتصرف مجلد ٦ ج ٢٢ ص ٢٦ ــ ٣٠.

يكون لوجوب صدقه فى خبره، هذا يدلك على براءته من كل ماذكره مستور من المفسرين مقصور على علوم الدين... فإن قيل: فلأى معنى قال له (ﷺ): أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ـــ وقد أخبره الله أنها زوجته لازوج زيد؟

قلنا: هذا لا يلزم ولكن لتطييب نفوسكم نفسر ما خطر من الإشكال فيه:

أنه أراد أن يختبر منه مالم يعلمه الله به من رغبته فيها أو رغبته عنها فأبدى له زيد النفرة عنها والكراهية فيها ما لم يكن علمه منه فى أمرها، فإن قيل: فكيف يأمره بالتمسك بها، وقد علم أن الفراق لابد منه وهذا تناقض؟

قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لايؤمن.

فليس فى مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكماً، وهذا من نفيس العلم فتيقّنوه وتقبّلوه..»[1].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله تعالى فى كتابه أضواء البيان:«..قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام فى صلة موصول، وذكرنا أن من أمثلة ذلك قوله:«وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ» لأن جملة: الله مبديه صلة الموصول الذى هو ما... فإنه هنا أبهم هذا الذى أخفاه (ﷺ) فى نفسه وأبداه الله ، ولكنه أشار إلى أن المراد به زواجه(ﷺ) بزينب بنت جحش رضى الله عنها، حيث أوحى إليه ذلك، وهى فى ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة لأن زواجه إياها هو الذى أبداه الله بقوله:«فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهاَ وَطَراً زَوَّجْناَكَهاَ».

---

(١)أحكام القرآن لابن العربى ج ٣ ص ١٥٥٢

وهذا هو التحقيق فى معنى الآية الذى دل عليه القرآن وهو اللائق بجنابه (ﷺ)..»[1].

منشأ الخطأ فى تأويل متعلق الخشية:

فمتعلق الخشية على رأى القائلِين بالعشق والغرام هو خشيته (ﷺ) أن يطّلع الناس على ما فى قلبه من الحب والميل إلى زينب..
أما على رأى المحققين العارفين بأحوال الأنبياء فمتعلق الخشية خشيته(ﷺ) من وقوع الناس فى عرضه وقولهم: تزوج بزوجة ابنه.

والفرق واضح بين متعلق الخشيتين فى كلتا الحالتين.

والخشية هنا ليس معناها الخوف إنما معناها الاستحياء كما قال ابن فورك [2]، أى يستحى منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه ، وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وشغبهم على المسلمين بقوله: تزوّج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فعاتبه الله تعالى على هذا أو نزّهه عن الالتفات إليهم فيما أحله الله له..

الوجه الثالث: من الناحية المنطقية:

لو سلمنا جدلا أن الذى كان يخفيه رسول الله(ﷺ) فى نفسه هو ميله إلى زينب.. فلماذا عتب الله عليه عدم التصريح بهذ الميل؟، وهل الأصل الخلقى أن الرجل إذا أحب أمرأة لَغَطَ بين الناس مُشَهِّراً بنفسه

(١)أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ج ٦ ص ٥٨٠ ط المدنى بمصر.
(٢)محاسن التأويل للقاسمى ج ١٣ ص ٤٨٦٩

وبمن أحبه؟ وبخاصةٍ إذا كان ذا عاطفة منحرفة جعلته يحب امرأة رجل آخر؟ وهل يلوم الله تعالى رجلا لأنه أحب امرأة رجل آخر فكتم هذا الحب في نفسه؟ أكان الله تعالى يرفع درجته ويعلي كلمته لو أنه صاغ فيها قصائد الغزل وبالغ في إذاعة غرامياته على الأشهاد؟ إن هذا والله هو السَّفَه.. بل الجهل الفادح بكتاب الله وبأحوال أنبياء الله ورسله، إن الله لا يعاتب أحدا على كتمان حب طائش.. إنما الذى أخفاه النبى(ﷺ) فى نفسه تَحَرُّجه من هذا الزواج المفروض وتراخيه فى إنفاذ أمر الله به وخوفه من لَغَطَ الناس عندما يجدون نظام التبنِّى الذى أُلِفوه قد انهار .. ولكن هذا الذى سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه ويجب على النبى(ﷺ) أن ينفّذه دون تَهَيُّب[1] .

الوجه الرابع:

ساق الإمام بن حزم رحمه الله تعالى فَهْماً آخر للآية وهو من بعض جوانبه وجيه جدًّا، وقد ساقه فى معرض الرد على من زعم صدور المعاصى من الأنبياء،استدلالا بمثل هذه الآية، حيث قال ابن حزم فى كتابه الفصل ما نصه:وإما قوله تعالى«وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

فقد أنفنا من ذلك إذ لم تكن فيه معصية أصلا ولا خلاف فيما أمره الله به، وأن ماكان أراده زواج مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره، وإنما خشى النبى (ﷺ) فى ذلك خوف أن يقولوا قَوْلًا ويظنوا ظَناًّ فيهلكوا كما قال عليه السلام للأنصاريين: إنها صفية؛ فاستعظما ذلك فأخبرهما النبى (ﷺ)أنه إنما خشى أن يُلْقى الشيطان

---

(١)انظر فقه السيرة للأستاذ محمد الغزالى ص ٤٧٥

فى قلوبهما شيئا، وهذا الذى خَشِيَهُ عليه السلام على الناس من هلاك أو يأتيهم بظن يظنونه به عليه السلام هو الذى يحقّقه هؤلاء المخذولون المخالفون لنا فى هذا الباب من نسبتهم إلى النبى(ﷺ) تَعَمُّد المعاصى فهلكت أديانهم وضلوا؛ ونعوذ بالله من الخذلان، وكان مراد الله عز وجل أن يبدى مافى نفسه لما كان سلف فى علمه من السعادة لأُمّنا زينب رضى الله عنها..»انتهى(١).

ولاشك أن رسول الله (ﷺ) رؤوف رحيم بأمته فهو يخشى عليها من الوقوع فى الهلاك باعتقاد ما يتنافى مع كرامة الأنبياء وعصمتهم.

الوجه الخامس:

أن الله تعالى قال فى هذه القصة:«ما كَانَ على النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فيما فرضَ اللهُ لَهُ».

وهذا يدل على أنه لم يكن عليه حَرَج فى الأمر ولو كان على ماقيل من وقوعها فى قلبه ومحبته طلاق زيد لها لكان فيه أعظم الحرج، ولكن الآية جاءت تشريعاً وفرضاً كما ترى.. فكان لابد من تنفيذ أمر الله«وكَانَ أَمْرُ اللهِ مفعولًا».

الوجه السادس:

أن زينب كانت بنت عمة الرسول(ﷺ) رُبِّيَتْ تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها وإباء أخيها وعُدَّ هذا منها عصيانا وما زالت كذلك حتى نزل فى شأنها قرآن.

فكأنه أرغمها على الزواج بزيد لما أَلْهَمَهُ الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه (ﷺ) لكان أقوى سلطانه عليه جمال البِكْرِ فى روائه ونضرة جدته، وقد كان يراها

---

(١)الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ٢٣

ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شئ من محاسنها الظاهرة، ولكن لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية(١).

الوجه السابع:

أن الله تعالى كان يحاسب نبيه(ﷺ) على ترك الأولى ويعاتبه على ذلك.

ألا ترى أن الله تعالى عاتبه على محاولة إرضاء زوجاته بامتناعه عن بعض ما أحل الله له كما قال تعالى:« ياأَيُّهاَ النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ماَ أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».(٢)

وليس المراد بالتحريم هنا اعتقاد حُرْمَة ذلك لأن الرسول (ﷺ) لايعتقد ما يخالف شريعته، وإنماالمراد بالتحريم هنا الامتناع عن فعل أمر حلال له، إرضاء لبعض زوجاته سواء أكان امتناعه عن العسل الذى كان يأكله عند بعض نسائه أم عن مارية القبطية، والقصة مشهورة فى كتب التفسير.

ثم انظر إلى أن الله لم يدعِ لنبيه (ﷺ) أن يعرض عن ابن أم مكتوم ويتصدى لصناديد قريش طمعاً فى إسلامهم حتى عاتبه على ذلك فى قوله« عَبَسَ وتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى..» الخ الآيات.

مع أنه (ﷺ) لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يَعُدُّه فى نفسه خيرا للدين، ولم يكن رغبة فى جاه ولا شَرِهاً إلى مال ولا طموحا إلى لذة، فلو صحت الرواية التى زعموها فى شأن زينب لكان العتاب على تلك التسبيحة بمسمعٍ من زينب ثم على الزواج منها بعد الطلاق.

---

(١)نقل هذا الكلام بتصرف يسير من رسالة للإمام محمد عبده تفسير الفاتحة ص ١٩٣

(٢)سورة التحريم آية

وما كان محمد فى علوّ مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه، ولا أن يُسْمعها ما يدلّ على شغفه بها ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها، وما كان ربُّ محمدٍ يُعلِّلُ شهوته ويُرَفِّه من هواه فيما يخالف أمره، وهو الذى نهاه عن أن يمد عينيه إلى مامَتَّعَ الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا، ومن زهرتها النساء.

يقول الإمام محمد عبده فى رسالته:

«أما والله لولا ما أدخل الضعفاء والمدلِّسُون من مثل هذه الرواية ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شئ مما يومئون إليه؛فإن نص الآية ظاهر جلى لايحتمل معناه التأويل ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهل فى الأمر والتريث به، وأن الذى كان يخفيه فى نفسه هو ذلك الأمر الإلهى الصادر إليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة فى نفوس العرب وأن يتناول المعول لهدمها بنفسه كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مره عند فتح مكة»[1].

وقد استغرب القاضى أبو بكر بن العربى ما أثير حول هذا الموضوع من آراء . ثم قال:«..فأما قولهم أن النبى (ﷺ) رآها فوقعت فى قلبه فباطل فإنه كان معها فى كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ حجاب.

فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه إلا إذا كان لها زوج، وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة. وقد قال سبحانه وتعالى:«وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ».

والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين، ولم يخالف هذا فى

---

(١)الرسالة السابقة لمحمد عبده ص ٢٠١.

المطلقات فكيف فى المنكوحات... المحبوسات»[1].

الشبهة الرابعة:

قالوا فى الرسول(ﷺ) إنه رجل شهوانى تذوب شخصيته فى مخادع النساء.. ولهذا أكثر من الزوجات وحجر على أمته فى أربع زوجات كحد أعلى بشروط معينة وأباح لنفسه أكثر من ذلك ولم يكتف بهذا، بل عمل على فسخ زوجة ابنه ومولاه ليتزوجها لأنها كانت بيضاء جميلة.

وهذه الشبهة من مطاعن المستشرقين الحاقدين على الإسلام، وقد تقدم قول المستشرق«إميل درمنغم» فى كتابه (حياة محمد): شعر محمد بالعقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء[2].

وقول المستشرق«غوستاف لوبون» حيث قال :«وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء».

وقوله:«وأطلق محمد العنان لهذا الحب حتى إنه رأى اتفاقا زوجة ابنه المتبنَّى وهى عارية فوقع في قلبه منها شئ فسرّحها بعلها ليتزوجها محمد..»[3].

ويقول الأستاذ«الحداد» فى كتابه القرآن والكتاب..(ولكن القرآن ينص على أن قلب النبى وهو الرسول البشر«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» كان يخفق أحيانا للحب والجمال كما يشهد فى قوله«وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ» وكما يصف ذاته فى حب زينب بنت جحش«وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ»)[4].

والرد على هذه الشبهة بما يلى:

١ ــ أن المنصفين من المستشرقين يرفضون هذه الفكرة التى

---

(١)أحكام القرآن لابن العربى ج ٣ ص ١٥٣١ (٢)حياة محمد ص ٢٩٩

(٣)حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ص ١١٢

(٤) القرآن والكتاب ج ٢ ص ٨٣٢

اختلقها زملاؤهم فى الاستشراق من الحاقدين على رسول الإسلام(ﷺ).. فقد قال الفيلسوف الإنجليزى«توماس كارليل» :

«وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظُلْماً وعدواناً ،وشدَّ ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلا شهوياً لاهم له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلّا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذّ أياًّ كانت.

لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار.. وإنهم ليذكرون ـــ ونعم ما يذكرون ـــ بأنه كان يصلح ويرفأ ثوبه بيده. فهل بعد ذلك مكرمة ومعجزة. فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد فى [طاعة] الله قائم النهار ساهر الليل دائبا فى نشر دين الله ...الخ»(١) .

ويقول المستشرق«مونتجومرى وات» فى كتابه(محمد فى المدينة):

«.. وبالرغم من أن الكتّاب المسلمين رَوَوْا فيما بعد قصصا ممتعة حول حساسية محمد أمام سحر النساء، وبالرغم من أنه ليس لدينا أى سبب للافتراض بأنه كان يهمل تماما تأثير الجاذبية الجسدية فإنه من الأكيد أنه كان يسيطر تماما على عواطفة أما الجنس اللطيف، وأنه لم يكن يتزوج إلا إذا كان هذا الزواج مستحسنا سياسيّاً واجتماعيّاً..»(٢) .

وهذا الكلام على مافيه اعتراف بسيطرة النبى(ﷺ) على عواطفه تماما، وحاشا رسول الله أن تكون عواطفه مخالفة للآداب السامية التى جاء بها..

وأقوال المنصفين المستشرقين كثيرة فى هذا جدا كقول

(١)كتاب الأبطال ص ٨٣

(٢)محمد فى المدينة ص ٥٠٦

المستشرق«ول ديورانت» وغيره [١].

٢ ـــ أن حياة الرسول(ﷺ) قبل البعثة وقبل حمل أعباء الرسالة خير شاهد على عفة ضميره وطهارة نفسه مع أنه فى عهد الصبا والشباب حيث يشتد سلطان الشهوة ويبلغ غايته فى الاستبداد والتحكم فى كيان الإنسان، ولكن المحفوظ من سيرة نبى الإسلام (ﷺ) أنه تزوج بالسيدة خديجة رضى الله عنها وهو فى الخامسة والعشرين من العمر وكانت ـــ هى ـــ فى سن الأربعين وظل معها وحدها لايضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفُضْلَى الخامسة والستين وتوفيت وهو ـــ (ﷺ) ـــ فوق الخمسين.

ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لَدَداً أن ينسب إليه دَنَساً أو يتهمه بريبة فى هذه الفترة الخصبة الرحبة من عمر الإنسان، بل كان رونق العفاف والشرف يتألق فى جبينه حيث سار، ولو أنه أحب التزوج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة؛ فإن التعدد كان موجودا عند العرب مألوفا فى مجتماعاتهم معروفاً فى ديانة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

٣ ـــ أنه صلى الله عليه وسلم لما توفيت خديجة وأحب أن يتزوج لم يكن البحث عن الجمال فى مظانّه هو الباعث له على تخير شريكته فى حياته أو شريكاته، ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم، بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزروه فى دعوته وعاونوه فى رسالته.

فاختار (عائشة) بنت أبى بكر الصديق ـــ على صغر سنها ـــ واختار(حفصة) بنت عمر ـــ على قلة وسامتها ـــ ثم اختار (أم سلمة) أرملة قائده الذى استشهد فى سبيل الله. وعانت امرأته ما عانت فى

---

(١)انظر قصة الحضارة ـــ المجلد الثانى ج ٤ ص ٦٤

الهجرة إلى الحبشة وفى الهجرة إلى المدينة.

ومن قبل هؤلاء كانت معه(سودة) وهى امرأة نزلت عن حظها من الزجال لكبرها وعزوفها»[١].

وكذلك زوجاته الأخريات كانت البواعث على زواجه بهن واضحة معروفة. وسنتحدث عن هذا بصورة موجزة فيما بعد.

٤ ــ أن المتعة فى حياة النبى(ﷺ) لم تكن غاية يسعى لها، بل لم تكن هناك متعة مقصودة لذاتها فى حياة رجل لم يسترح يوماً من عناء الكفاح الموصول والجهاد المضنى.

إن حَمَلَة الرسالات الإنسانية المحدودة تعييهم هموم العيش ومشكلات الشعوب فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجمعوا قليلًا ثم ينهضوا لاستئناف اللغوب.. فكيف بصاحب الرسالة العظمى؟ لقد لقى من العرب ما رأيت. ونسأل أيضا: ما مكان المتعة فى حياة رجل عزف عنها وهو شاب فكيف يغرق فيها وهو شيخ؟

وإذا أخذنا فى اعتبارنا مشاغله وانشغالاته وأعباءهُ وهمومَه المختلفة العامة منها والخاصة، مثل إقامة الصلوات الخمس منذ الفجر حتى العشاء وتعليم القرآن الكريم، وتوزيع الصدقات العامة، والفصل فى المنازعات ومقابلة الوفود ، ومراسلة الملوك والحكام، وقيادة المعارك العسكرية، وسن التشريع وتأسيس الدولة. وباختصار العناية بكل شئ وبكل الناس، ثم بعد ذلك قيام الليل راكعاً أو ساجداً أو قائماً متوجهاً إلى السماء، كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقى على الزواج هو شئ آخر بعيداً كل البعد عن إرضاء الغريزة البهيمية[٢].

وهذا لا يعنى أن الرسول (ﷺ) غير قادر على معاشرة النساء فإن

---

(١)انظر السيرة لمحمد الغزالى ص ٤٧١ ــ ٤٧٢

(٢)انظر مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٥٤

الرسول(ﷺ) له من القوة الجسدية رصيد كبير، وإلى جانب هذا له رصيد أكبر من القوة الروحية والنفسية، وبهذه القوة الروحية والنفسية استطاع أن يحفظ توازنه وأن يغلب دواعى القوة الجسدية، وأن يحمى شبابه من أن تستبد به شهوة أو تغلبه نزوة، ولا شك أنها عناية ربانية حفظته ووجهته لتحمل أعباء الرسالة فى أوسع ميادينها..

فالقدرة على النكاح من كمال الرجولة.. يقول القاضى عياض.. «النكاح دليل الكمال وصحة الذكورية»(١) .

وقد كان النبى (ﷺ) يؤدى وظيفة المتعة الزوجية مع نسائه على الوجه الأكمل حيثُ إنَّ ذلك من مقتضيات العلاقة الزوجية، بل لقد روى أنه طاف على نسائه فى ليلة واحدة، وليس فى هذا غضاضة عليه أو خدش لكرامته أن يستمتع بما أحل الله له من زوجاته الطاهرات، بل إن الإسلام يعتبر قضاء الشهوة من طريق الحلال طاعة وقربة يُثاب على فعله، فقد قال رسول الله(ﷺ):«وفى بضع أحدكم صدقة» قالوا: يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ فذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»(٢)

وفرق بين كون الرسول (ﷺ) يؤدى هذه المتعة كوظيفة زوجية ويقوم بها على الوجه الأكمل وبين كون المتعة واللّذّة هى البواعث الأساسية فى كثرة نسائه.

كما أن الرسول (ﷺ) يملك نفسه تماماً إذا أراد الامتناع عن هذه المتعة الزوجية، فهذه عائشة رضى الله عنها تروى لنا أن الرسول (ﷺ) كان يُقَبِّلُها وهو صائم ولكنها عللت ذلك بقولها ــ ولكنه «كان

---

(١)الشفا ج ١ ص ٦٨

(٢)صحيح مسلم ج ٢ كتاب الزكاة ص ١٩٧ ــ ١٩٨ فؤاد عبد الباقى.

أمْلَكَكُم لإرْبِهِ« أى لشهوته[1] ، وقد اعتزل رسول الله (ﷺ) نساءه شهراً.

أفبعد هذا يقال إنه رجل شهوانى تذوب شخصيته فى مخادع النساء على أن هناك شهوات أخرى تستبد بالإنسان وتغلى مراجلها فى كيانه.. كشهوة المال والجاه والسلطان ، وكشهوة الطعام واللباس، وصور كثيرة من حياة الترف والزينة التى يقتتل من أجلها الناس:« زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهواتِ من النّساء والبنينَ والقناطير المُقَنْطَرَةِ من الذَّهب والفِضَّة والْخَيْلِ المُسّومةِ والأنْعامِ والحْرثِ ذَلِكَ متاعُ الحياةِ الدُّنيا والله عِنْدهُ حُسْنُ المآب»[2]

والمعروف من حياة النبى (ﷺ) التقشف والشظف الذى لايطيقه أحد ، ولا نعنى بهذا أن الإسلام يعاف الطيبات ، أو أنه يسن للناس تركها كلَّا فشريعةالإسلام فى هذا بيّنة نيّرة، وإنما نسرد الواقع من حياة رجل صدفت نفسه عما يقتتل الناس عليه، إنَّ الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة يفرحون بها ويختصمون عليها، لأن طبيعة رجولته فى شغل عن عبث الصبية.إنَّ بعض المخترعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهيأ لهم، استغراقا فيما ملك عليهم مشاعرهم من العمل والتفكير الجاد، لقد كان النبى(ﷺ) يعيش هو وأهله على قاعدة(ماقَلَّ وكفى خيرٌ مما كَثُرَ وأَلْهَى)[3] .

والمطلع على أحوال النبى(ﷺ) يعرف ذلك تماما.

---

(١) أكثر المحدثين يروونه بفتح الهمزة والراء يعنون الحاجة وبعضهم يرويه بكسر الهمزة وسكون الراء، وله تأويلان : أحدهما: أنه الحاجة، يقال فيها: الأرِبُ، والإرْبُ، والإرْبَةُ والثانى: أرادت به العضو وعنت به من الأعضاء الذكر خاصة . انظر النهاية لابن الأثير ج١ ص ٣٦

(٢) سورة آل عمران آية ١٤

(٣) حديث شريف أخرجه الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٩٧ والطيالسى ٩٧٩ وانظر أيضا: فيض القدير ج ٥ ص ٤٦١ حيث قال عنه الهيثمى. رجال الصحيح.

تعدد زوجات النبى (ﷺ)

لست أريد هنا أن أشرح الأبعاد والبواعث، وأستقصى الحكم والأسرار، لتعدد زوجات النبى(ﷺ)، فإن هذا يحتاج إلى مؤلف خاص، وهو موضوع ذو جوانب مختلفة ، ولكننى أريد كما وعدت قبلاً أن أشير إليه إشارة موجزة تكشف عنه بعض الجوانب وتبيّن أن تعدد زوجات النبى(ﷺ) لم تكن بواعثه قائمة على الشهوة الجامحة ولا الغريزة الملتهبة، وإنما كان هذا التعدد، لأسباب شرعية واجتماعية وسياسية وإنسانية.. مما يخدم الدعوة الإسلامية ويكون سبيلا إلى ترسيخها فى أذهان الناس يقول«وِلْ ديُورانتْ» فى شأن زيجات النبى(ﷺ) مانصه:

«...لقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتى توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه... وكان بعضها زيجات سياسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذى أراد به أن يوثق صلته بأبيها، وكزواجه من ابنة أبى سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم، وربما كان الدافع إلى بعضها أمله فى أن يكون له ولد» (١)..

وهناك نقطتان جوهريتان يجب ألّا نغفلها وأن نضعها نُصْبَ أعيننا، حينما نتحدث عن تَعَدُّد زوجات النبى(ﷺ).

النقطة الأولى: أن الرسول (ﷺ) لم يعدد زوجاته إلا بعد بلوغه سن الشيخوخة؛ أى بعد أن جاوز من العمر الخمسين.

النقطة الثانية: أن جميع زوجاته الطاهرات ثيبات ــ أرامل ــ ما عدا

---

(١)قصة الحضارة المجلد الرابع ج ٢

عائشة رضى الله عنها فهى الوحيدة من بين نسائه التى تزوّجها وهى فى حالة الصبا والبكارة (١).

فلو كانت بواعث التعدد هى الشهوة وإرضاء الغريزة لاختار البنات الأبكار، وطلب الجمال فى مظانّه بين المهاجرين والأنصار، بل عند غيرهم حتى من ألد أعدائه، فقد كانوا يرون فيه الرجل الكامل العظيم الذى تُخطبُ ساحته ويحتمى بحماه.

والآن ، لنستعرض أسماء زوجات الرسول(ﷺ) بعد خديجة رضى الله عنها على عجل لنرى بعض البواعث لزواج النبى(ﷺ) بهن:

١ ــ «سودة بنت زمعة»

وهى أرملة السكران بن عمرو العامرى القرشي، وكان من السابقين إلى الإسلام، الذين تحملوا فى سبيله الاذى، والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبى(ﷺ) بالهجرة إليها عبر البحر، وقد أسلمت سودة وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وعانت من المشاق ماعانى ، ولقيت من الأذى ما لقى.

وقد توفى عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية، فأصبحت أرملة وحيدةً، لامعيل لها ولا معين سوى الله تعالى.

ولو عادت إلى أهلها ــ بعد وفاة زوجها ــ لأكرهوها على الشِّرْك أو عذَّبوها عذابا نكرا. فاختار النبى (ﷺ) كفالتها، وضمها إليه وهى أرملة مُسِنَّة بلغت من العمر الخامسة والخمسين، وهذا منتهى الكرم والإحسان من رسول الله (ﷺ)..

٢ ــ «عائشة بنت أبى بكر الصديق»:

وقد اختارها رسول الله(ﷺ) على صِغَر سنها، تقديرا لصحبة أبيها،ورغبة فى مصاهرته، لأنه كان وزيره الأول، وصاحبه المخلص الأمين،

---

(١)انظر زاد المعاد ج ١ ص ١٠٦.

وعائشة هي البِكْر الوحيدة التى تزوجها رسول الله(ﷺ)، ولم يكن الباعث على زواجه بها هو الحب والعاطفة، لأنه خطبها (ﷺ) إلى أبيها وهى فى سن مبكرة جداً كما فى صحيح البخارى ومسلم، خطبها وهى فى السادسة من عمرها ودخل بها،هى فى التاسعة من عمرها [1].

وعلى هذا فليس مما يقبله العقل أو يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها وهى فى هذه السن الصغيرة لمجرد ما يحبه الرجل من النساء.

فأما ماصح من أن النبى(ﷺ) كان يحب عائشة، فقد نشأ ذلك بعد الزواج لا قبله ولا حينه.

ولا ضير فى محبته لها مادامت زوجته، لأن ذلك النوع من الحب إنما هو العاطفة المستقيمة والنظرة المهذبة؛ قال تعالى:« ومِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إلَيْهاَ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مودَّةً وَرَحْمَةً»[2] .

٣ ــ «حفصة بنت عمر بن الخطاب»

وهى أرملة(خنيس بن حذافة الأنصارى) الذى استشهد فى بدر بعد أن أبلى بلاءً حسناً ، ولم يكن زواج النبى (ﷺ)بها مبنياً على حب أو عاطفة، وهذا بشهادة أبيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد دخل عليها يوماً عندما بلغه أنها تؤذى رسول الله(ﷺ)، فقال : ياحفصة ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله (ﷺ)؟ والله لقد علمت أن رسول الله (ﷺ) لا يحبُّكِ، ولولا أنا لطلقّك رسول الله (ﷺ)[3] .

وقد تزوجها رسول الله (ﷺ) على قلة وسامتها جَبْراً لخاطر أبيها عمر لمكانته عنده، ولكي يساوى بينه وبين أبى بكر الصديق فى تشريفهما بمصاهرته (ﷺ).

---

(١)انظر طبقات ابن سعد ج٨ ص ٥٨ وزاد المعاد ج ١ ص ١٠٦

(٢)سورة الروم آية ٢١ (٣)انظر تفسير القرطبى ج ١٨ ص ١٩٠ ص دار الكتاب.

٤ ــ «زينب بنت خزيمة».

وهى أرملة(شهيد أُحُد) عبيدة بن الحارث، وقد استشهد زوجها وهى تقوم بواجبها فى إسعاف الجرحى وتضميد جراحهم، ولم يشغلها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها.

ولما علم النبى(ﷺ) بصبرها وثباتها، وأنه لم يعد هناك من يعولها خطبها النبى(ﷺ) لنفسه وآواها وجبر خاطرها بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين، ولم تكن ذات جمال، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لُقِّبَتْ بأم المساكين، وقد توفيت بعد سنتين من زواج النبى (ﷺ) بها فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبى(ﷺ) التى توفيت قبله.

٥ ــ «زينب بنت جحش»

وهى التى نتحدث عنها فى هذا البحث... وقد تزوجها رسول الله (ﷺ) لحكمة تشريعية ظاهرة، وهى إبطال التبنِّى وما يتعلق به من أحكام كما تقدم...

٦ ــ «أم سلمة هند بنت أمية»

وهى أرملة(شهيد أُحُد) عبد الله بن عبد الأسد الذى هاجر معها إلى الحبشة. ولما استشهد فى غزوة أُحُد بقيت هى وأيتامها الأربعة بلا كفيل فلم يَر عليه السلام عزاء ولا كافل لها ولأولادها غير أن يتزوج بها، ولما خطبها لنفسه اعتذرت إليه وقالت:» إنى مسنّة وإنى أم أيتام وإنى شديدة الغيرة».

فأجابها النبى (ﷺ): أما الأيتام فأضمهم إلىّ وأدعو الله أن يذهب عن قلبك الغيرة. فتزوجها (ﷺ) ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة وذرية ضعافاً يخافون عليهم العَيْلَة والضياع؛ ولقد ضرب النبى(ﷺ) المَثَلَ الأعلى فى هذا التكافل الاجتماعى، ووجّه أصحابه إلى ذلك.

٧ ـــ «أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان»:

وهى أرملة« عبد الله بن جحش» الذى توفى بالأرض الحبشية وضاقت الأرض بما رحبت بالسيدة أم حبيبة رضى الله عنها.

هاجرت إلى أرض الحبشة، فارة بدينها هاربة من أذى قريش، إنها بنت أبى سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها فى محاربة الإسلام عشرين عاماً أفإن أسلمت وأرغمت أباها وقومها فى ذات الله ثم هاجرت إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته، تترك للإهانة وتسلم لليأس والضياع؟

أترى مثل هذه السيدة إذا مات عنها زوجها تترك لمن يخدش مكانتها؟ لقد ضمها النبى(ﷺ) إلى زوجاته إعزازاً لشأنها وتقديراً لصنيعها.

٨ ـــ «جويرية بنت الحارث».

وهى أرملة« مسافع بن صفوان المصطلقى» وكان أبوها زعيم بنى المصطلق.

وقد انتهت حربه مع المسلمين بهزيمة نكراء، وكادت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة، فواسى النبى(ﷺ) القائد الهزوم ثم أصهر إليه حتى يُشعر المسلمين بما ينبغي لأتباعه من كرامة ومعونة.

وقد وقع ما أحبه النبى (ﷺ) ، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالا ونساء، إذ تَحَرَّجَ المسلمون أن يسيئوا إلى قوم تزوّج النبى(ﷺ) ابنتهم(١) . وهذه من أوضح الحِكَم السياسية فى استقطاب الخصوم ومسح الجراح التى أَلَمَّتْ بهم فلم يلبثوا أن صاروا من جنود الإسلام وحَمَلَة رسالته.

٩ ـــ «صفية بنت حيى بن أخطب»:

---

(١)انظر فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٤٧٧

وهى أرملة(كنانة بن أبى الحقيق) كان أبوها ملك اليهود. وفى الصراع بين بنى إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها، ووقعت فى سهم جندى من جنود المسلمين لايعرف إلا أنها أسيرة حرب من حقّه بملك اليمين أن يسلك معها كيف يشاء.

فإذا رقَّ النبى(ﷺ) لحالها ووهبها حريتها، ثم جبر كسرها، وقدر ماضيها فتزوجها، ليستطيع بإحسانه وإكرامه تطييب خاطرها ، فهل ذلك مما يُلَام عليه؟

١٠ــ «ميمونة بنت الحارث الهلالية»:

وهى آخر امرأة تزوّجها رسول الله(ﷺ)، وكان زواجه بها فى أواخر السنة السابعة من الهجرة إبّان عمرة القضاء، بإشارة من العباس بن عبد المطلب عم النبى (ﷺ) وقد زوجها العباس رسول الله(ﷺ) إذ كان يلى أمرها كما ذكره ابن سعد وغيره من أصحاب السِّيَر [١].

وقد تزوج النبى(ﷺ) بها، فكان زواجه خيراً وبركة إذْ تقرَّب إلى الهلاليين ، فأكبروا فى رسول الله(ﷺ) هذه المروءة، ونصروه وساروا من حيث سار.

وميمونة رضى الله عنها هى خالة عبد الله بن عباس، وكانت مجاهدة شجاعة، تقف فى صفوف المجاهدين تسعف الجرحى وتداوى المرضى، كما حدث فى غزوة تبوك، ويقال هى أول امرأة ألفت فرقةنسائية لإسعاف الجرحى فى ميادين القتال، وقد أصابها فى جهادها سهم من سهام الأعداء وهى تحمل الماء للمصابين فكاد يقتلها لولا عناية الله ولطفة.

فهل تجد أثراً للهوى والشهوة فى هذا الزواج الكريم أو هى الرحمة والمروءة والعطف والإحسان فى أوسع ميدان وأجمل صورة؟

---

(١)انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ١٣٢

هذه لمحة موجزة عن تعدد زوجات النبى(ﷺ) مع الإشارة إلى بعض الحِكَم ، ولم نتعرض بالتفصيل إلى الحِكَم التشريعية والتعليمية والاجتماعية، والسياسية والإنسانية فى تعدد زوجات النبى(ﷺ)، لأننا سنخرج عن موضوعنا إلى تفصيلات أخرى متشعبة وهى بحاجة إلى دراسة مستقلة، على أن تعدد الزوجات بشكل عام لم يكن بِدْعاً فقد كان فى الجاهلية منتشرا، كما كان فى الشرائع السابقة، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام كانت عنده زوجته سارة ثم تزوج(هاجر) أم إسماعيل عليهما السلام.

وهذا داود وسليمان كانت لكل منهما مجموعة من النساء ، فنظام التعدد فى الإسلام لم يكن نظاماً جائراً ولا خارجا عن المألوف عند الأمم والشعوب، بل إن الإسلام حدَّد ونظم وجعل التعدد منوطاً ببواعثه مثقلا بتبعاته؛ فالغُرم على قدر الغُنم والمتع المتيسرة تتبعها حقوق ثقيلة، وللأستاذ«محمد الغزالى» كلام جيد فى هذا المقام؛ إذ ناقش الموضوع مناقشة منطقية فقال:

«إن النسبة بين عدد الرجال والنساء إما أن تكون متساوية، وإما أن تكون راجحة فى إحدى الناحيتين، فإن كانت متساوية أو كان عدد النساء أقل فإن تعدد الزوجات لابد أن يختفى من تلقاء نفسه، وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قَسْراً ، ويكتفى كل امرئ ــ طَوْعاً أو كَرْهاً ــ بما عنده.

أما إذا كان عدد النساء أَرْبَى من عدد الرجال فنحن بين واحد من ثلاثة:

١ ــ إما أن نقضى على بعضهن بالحرمان حتى الموت.

٢ ــ وإما أن نُبيح اتخاذ الخليلات ونقر جريمة الزنا.

٣ ــ وإما أن نسمح بتعدّد الزوجات.

ونظن أن المرأة ــ قبل الرجل ــ تأبى حياة الحرمان وتأبى فراش

الجريمة والعصيان. فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها وينتسب إليه أولادها ، ولا مناص بعدئذٍ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذى صرح به الإسلام..»[1]

وهذا الاعتراف واضح فى مقالات المستشرقين ، يقول الأستاذ «غوستاف لوبون»:«إن تعدد الزوجات على مثال ماشرعه الإسلام من أفضل الأنظمة وأنهضها بآداب الأمة التى تذهب إليه وتعتصم به وأوثقها للأسرة عقدا وأشدها لآصرتها أزْراً. وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالا وأوجه شأنا وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية.

ثم قال«.. ولست أدرى على أى قاعدة يبنى الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام ـــ نظام تعدد الزوجات ـــ عن نظام التفرد عند الأوربيين المشوب بالكذب والنفاق؟ على حين أرى أن هنالك أسبابا تحملنى على إيثار نظام التعدد على ما سواه، وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون إلينا وينتقلون بين مدائننا يمارون من قسوتنا فى الحكم على نظام تعدد الزوجات»[2].

***

(١)فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٤٦٦

(٢)محمد رضا فى كتابه ـــ محمد رسول الله ـــ ص ٣٦٥ ط دار الكتب العلمية بيروت.

«عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»

كُنْتُ أريد أن أضمِّن مقدمة هذا الكتاب عصمة الأنبياء ، وأبحثُ هذه الناحية بشكل واضح مفصّل لتكون مرتكزاً للموضوع الذى أتحدّث عنه، ولكننى خشيت أن يصطدم القارئ الكريم منذ البداية بموضوع فكرىّ تختلف فيه وجهات النظر بين أصحاب المِلَل والنِّحَل، وقد يحدث الخلاف فى بعض قضاياه بين أبناء الملة الواحدة لتفاوت الافهام والمدارك، وتباين الأغراض والمقاصد، فيتشتت ذهن القارىء أمام ما نريد تحقيقه من عصمة الأنبياء من جانب. وما نريد بحثه من الناحية التاريخية والعلمية فى قصة زينب من جانب آخر ، فقد آثرت تأخير بحث موضوع عصمة الأنبياء، وجعلت له عنوانا مستقلاً، يكون بمثابة الخاتمة لهذا البحث، وسأتطرق إلى قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا، بشئ من التنبيه لمشابهتها من وجوه كثيرة بما أثير فى قصة زواج النبى(ﷺ) بزينب بنت جحش رضى الله عنها.

أما عصمة الأنبياء، فقد قامت البراهين القطعية على عصمتهم من الكذب فيما يبلّغون عن الله تعالى، من أمور الرسالة، وهذا باتفاق أهل الشرائع، كما قامت البراهين على عصمتهم من الكفر قبل النبوة وبعدها باتفاق أهل الشرائع أيضاً.

المعاصى نوعان: كبائر وصغائر.

فأما الكبائر عموماً والفواحش الموبقات منها خصوصاً، فالجمهور من أهل الملل والنحل يتفقون على استحالة وقوعها من الأنبياء عمداً سواء قبل النبوة أو بعدها.

وأما الصغائر، فهى محل خلاف وبحث عند العلماء، والبحث فيها من الأمور الاجتهادية.

وجمهور أهل السنة، يميلون إلى القول بعصمة الأنبياء من الصغائر عمداً ، خصوصاً بعد البعثة.

وظواهر نصوص القرآنِ الكريم والسنة المطهرة، تدل على عصمة الأنبياء عن ارتكاب الذنوب عمدا.

والأدلة على ذلك كثيرة ، نورد منها مايلى:

١ ــ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هم الصفوة من الخلق، وقد اختارهم الله تعالى، لحمل رسالاته وإبلاغها للناس، ولا يجتمع الاصطفاء وارتكاب المحظورات ، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الاصطفاء في قوله تعالى بعد تعداد الأنبياء:

«...إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ، وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ[1] ».

٢ ــ أن الله تعالى جعلهم قُدْوَةً حسنةً لأممهم، وأمر باتباع طريقهم والسير على نهجهم، فقال تعالى:« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ، فاتَّبِعُونِي يُحبِبْكُم اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ..»[2] .

وقال تعالى: « لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ والْيَوْمَ الآخِرَ....»[3] .

٣ ــ لو صدر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مخالفة لأمر الله تعالى، باقتراف الذنوب عمداً، لاستحقوا الذم عاجلاً، والعقاب آجلًا ، ولكن الله تعالى أثنى عليهم، وأمر بالاقتداء بهم ، فقال تعالى ــ بعد ذكر أسماء أنبيائه ـــ:« أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ والحُكْمَ

---

(١)الآية رقم ٤٦ و ٤٧ من سورة ص.

(٢)الآية رقم ٣١ من سورة آل عمران. (٣)الآية رقم ٢١ من سورة الأحزاب.

والنُّبوَّةَ... أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..»(١).

٤ ــ أنَّ اللهَ تعالى أمر بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر، فقال تعالي:« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحْسانِ وإيتاء ذِى القُرْبَىٰ، ويَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ»(٢).

وأنبياء الله تعالى أولى الناس بالالتزام ، بمقتضى الأوامر والنواهى والتَّقيُّدِ بالتوجيهات الإلٰهية ، وإلَّا فما وجه تخصيصهم بالرسالة، وائتمانهم عليها.

٥ ــ أنَّ الغواية من نزغات الشيطان ونزوات الهوى ، والشيطان لاسلطانَ له على عباد الله المُخْلَصِين ، وفي مقدمتهم أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى حكاية عن إبليس:«قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ» (٣).

وقد صرّح الله تعالى، بقوله:« إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ..» (٤).

٦ ــ أن الله سبحانه وتعالى ، صرّح ــ وهو العليم الخبير ــ بأنه يعلم حيثُ يضع الرسالة، ويودع الأمانة، فقال جَلَّ وعلا:«اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ»(٥).

***

(١)الآية رقم ٨٩ و ٩٠ من سورة الأنعام. (٢)الآية رقم ٩٠ من سورة النحل.

(٣)الآية رقم ٨٢ و ٨٣ من سورة ص . (٤)الآية رقم ٤٢ من سورة الحجر.

(٥)الآية رقم ١٢٤ من سورة الأنعام.

نماذج من الاعتراضات على عصمة الأنبياء، والرد عليها

١ ــ قد يقول قائل: إن الله تعالى صرّح بمعصية آدم ، فى محكم كتابه، فقال سبحانه :«وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » (١).

ويمكننا الإجابة عن هذا الاعتراض ، بما يلى:

أ ــ أن الذى بَدَر من آدم عليه السلام، من مخالفة كان عن طريق النسيان دون عزم، وذلك لقوله عز وجل:« ولقد عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (٢)

فقد فرق بين فعل المعصية عمداً ، وبين فعلها نسياناً.

ب ــ أن ما صدر من آدم عليه السلام، كان قبل النبوة، لقوله تعالى:«ثم اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ» (٣) .

فهذه المعصية قديمة ، إذْ كانت عندما كان آدم عليه السلام فى الجنة، ثم أُهْبِطَ منها ، للابتلاء ، فاستقام على أمر الله ، وندم على ما بدر منه ، فاجتباه الله بالنبوة وتاب عليه، وهداه إلى صراطه المستقيم.

٢ ــ وقد يقول قائل آخر: إن موسى عليه السلام، قد قتل رجلًا، لم يؤمر بقتله، كما أخبر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، حيث قال: « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهاَ رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هٰذَا منْ شِيعَتِهِ وهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فاسْتَغَاثَهُ الذّى من شِيْعَتِه على الذّى مِنْ عَدِوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ..» (٤)

والجواب عن هذا الاعتراض بما يلى:

أــ أن ذلك القتل حدث من موسى عليه السلام، من غير قصدٍ،

---

(١)الآية رقم ١٢١ من سورة طه. (٢)الآية رقم ١١٥ من سورة طه.

(٣)الآية رقم ١٢٢ من سورة طه. (٤)الآية رقم ١٥ من صورة القصص.

لأنه وكزه بيده، واليد ليس من شأنها أن تقتل غالباً، ولكن إرادةَ الله غالبة، وقضاؤه نافذ لا محالة.

ب ـــ أن موسى عليه السلام فعل ذلك قبل النبوة، بدليل أنه ندم على ما فعله، فاستغفر ربه، وفرَّ يطلب النجاة، فنجاه الله تعالى، ثم إنه رأى ناراً من جانب الطور، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله سبحانه:

«وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ رَأَى نَاراً فقَاَلَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهاَ بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ ياَ مُوسَى، إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فاَسْتَمِعْ لِماَ يُوحَىٰ»(١).

وكل ما وقع من الأنبياء عليه الصلاة والسلام مما ظاهره يوهم المخالفة والعصيان، مجاب عنه فى كتب العقائد بالتفصيل.

هذا، مع اتفاق العلماء على أنه لا يصدر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما يشين كرامتهم، قبل النبوة وبعدها، وبخاصة فيما يتعلق بالمروءة والشرف فى الأخلاق والأعراض.

وعلى هذا الأساس تكلّمنا عَمَّا أُثير من حب الرسول(ﷺ)، لزينب وهى فى عِصْمَة زيد بن حارثه(رضى الله عنه)، ورددنا تلك الروايات الدخيلة التى تمس كرامة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتقدح فى عصمتهم. وأما الخطأ والنسيان: فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يخطئون فيما يبلغونه عن الله تعالى من الوحى، ولا ينسونه كما قال تعالى:«سَنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَىٰ» (٢).

---

(١)الآيات من ٩ ـــ ١٣ من سورة طه.

(٢)الآية رقم ٦ من سورة الأعلى.

أما الخطأ فى الاجتهاد، والنسيان الذى لايطول ، فقد يقع هذا منهم عليهم الصلاة والسلام، ولكن الله سبحانه وتعالى، ينبههم إلى هذا الخطأ والنسيان، ويُصَوِّبُ لهم ما وقعوا فيه، لضمان جريان التشريع على وفق الأسس والأصول التى رضيها الله لخلقه، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما قصه الله تعالى فى أسرى بدر.

***

الشبهات التى وردت فى حق داود عليه السلام والرد عليها

تكلمنا على الشبه والمفتريات التى أثيرت عن حب النبى(ﷺ) لزينب(رضى الله عنها) ، وهى فى عصمة مولاه زيد بن حارثة.

ونود الآن أن نشير إلى بعض الشُّبَه والمفتريات التى أثيرت عن حب داود(عليه الصلاة والسلام) لزوجة قائده:« أوريا الحثىِّ»، لتشابه القصتين الخرافيتين من بعض الوجوه.

ولسنا بحاجة إلى إقامة الأدلة على محاولة أهل الفسوق والعصيان، تشويه سمعة الأنبياء(عليهم الصلاة والسلام)، والطعن فى عصمتهم، لأن الصراع بين الحق والباطل لا ينقطع ، ولكننا نريد أن نكشف عن بعض الجوانب الخطيرة فى قبول مثل هذه المفتريات ونشرها بين أبناء المسلمين.

***

قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا الحثى

لقد رويتْ فى هذه القصة أخبار متعددة وآثار متضاربة، معظمها من الأخبار الإسرائيلية، التى افتعل معظمها اليهود وأفِكُوها، للطعن فى عصمة نبى الله داود(عليه الصلاة والسلام)، وشاعت وذاعت هذه الأخبار بين الناس، حتى أصبحت تراثاً مُلِئَتْ به الكتب، وشوِّهت به الحقائق، وأصبحت تناقله الأجيال عن الأسلاف، على أنه تراث يرجع إليه فى معرفة أحوال الأنبياء، وتاريخ حياتهم وسيرهم، وكأنه جاء مدعماً بالأسانيد المتصلة.

وهذا الموضوع جدير بالنظر فيه من جوانب متعددة.

١ ــ أولها ــ : من ناحية الأخبار المروية، بأسانيدها المختلفة، وذلك بدراسة الأسانيد، وعرضها على موازين الجرح والتعديل، لمعرفة ما إذا كانت هذه الأخبار، مما يقبل مثله فى إصدار بعض التفسيرات التاريخية للقضايا الكبرى المتعلقة بعصمة الأنبياء وكراماتهم.

٢ ــ ثانيها ــ : أن السند، قد يكون متصلًا إلى الصحابة(رضى الله عنهم)، أو التابعين ، ولكنهم نقلوا ذلك عن أهل الكتاب، فيما يروونه من أخبارهم.

وموقفنا نحن المسلمين من هذه الإسرائيليات، يرتكز على الأسس التالية:

ا ــ ماورد من الأخبار الإسرائيلية، وله شاهد من القرآن الكريم، أو السنة الصحيحة، فإنه يقبل ، لأنه اقترن بمصدر صحيح، فترجح صدقه.

ب ــ ماورد من الأخبار الإسرائيلية، مناقضاً لحقائق الإسلام ومقرراته،

فإنه يُرَدُّ مالم يقم دليل صحيح، من الكتاب أو السنة، على اختصاصه بأهل الكتاب، أو نسخه.

فإن ثبت اختصاصه، بأهل الكتاب، أو نسخهُ فإنه يُقبل على أنه تدرُّجٌ في التشريع، أو أنه أثرٌ يُمثِّل وضعاً معيَّناً، في زمن مُعَيَّن.

ج ـــ وما عدا ذلك من الأخبار الإسرائيلية، فإنه يقبل على أنه أثرٌ يُستأنس به، وتباح روايته ، ولا يعتمد عليه، كما روى البخارى[1] بسنده عن أبي هريرة(رضى الله عنه) ، قال :«كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله(ﷺ): « لا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم، وقولوا: آمَنَّا بالله وما أُنْزِلَ إلينا، وما أنْزِلَ إليكم»[2] .

وأباح النبى(ﷺ) ، الرواية عن بنى إسرائيل فيما لايتعارض، مع قواعد الإسلام، فقال (ﷺ):«حَدِّثُوا عن بنى إسرائيلَ ولا حَرَجَ [3] ».

بَيْدَ أن هناك أخباراً ، مرويةً عن بنى اسرائيل ، وهى لاتطاق مرفوضة سنداً ومتناً، لأننا نجزم بعدم صحتها، وإن وردت فى الكتب المقدسة عندهم، وأذكر على سبيل المثال ما نحن بصَدَده من قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا الحثيّ فقد ورد فى « الكتاب المقدس» المجلد الأول ـــ سفر الملوك الثانى ـــ الفصل الحادى عشر(الإصحاح)، ما نصه:« وأما داودُ، فبقى فى أورشليم، وكان عند المساء، أن داودَ قام عن سريره وتمشَّى علي سطح بيت الملك، فرأى امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة جداًّ، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقيل له:

---

(١)فى صحيحه ـــ باب قول النبى (ﷺ):« لاتسألوا أهل الكتاب عن شئ». ـــ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢)انظر : فتح البارى ج ١٣ ص ٣٣٣، ط المكتبة السلفية.

(٣)أخرجه أبو داود عن أبى هريرة، وقال السخاوى:أصله صحيح . كما فى فيض القدير للمناوى ج ٣ ص ٣٧٧

هذه بَتْشابَع بنت أليعام ، امرأة أوريا الحثيّ، فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت عليه فدخل بها، وتطهرّت من نجاستها، ورجعت إلى بيتها، وحملت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود، وقالت : إننى حامل...

وتمضى القصة قائلةً:«فلما كان الصباح كتب داودُ إلى يُوْآب كتاباً وأرسله بيد أوريا، وكتب فى الكتاب، قائلًا: وَجِّهوا أوريا إلى حيث يكون القتال شديداً، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت، وسمعت امرأة أوريا، أن زوجها قد مات فناحت على بعلها، ولما تَمَّتْ أيام مناحتها ، أرسل داود وضمَّها إلى بيته، فكانت زوجة له، وولدت له ابناً، وساء ما صنعه داود فى عينى الرب»(١).

فأنت ترى فى هذا النص الوارد فى الكتاب المقدس حُكْماً، بارتكاب نبى الله داود(ﷺ) . جريمة الزنى، وأن هذه المرأة حملت منه سفاحاً، ولم تقف القصة عند هذا، بل ذكرت أن داود(عليه السلام) عمل على قتل زوج تلك المرأة، ليستمتع بها بعده!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومعظم الأخبار التى رويت فى شأن داود(عليه السلام) مع زوجة أوريا، مروية عن أهل الكتاب، وبخاصة اليهود.

وقد وردت هذه القصة فى بعض التفاسير ، ونبه عليها معظمهم . فهذا ابن جرير الطبرى ، يروى فى تفسيره هذه القصة، فيقول:«قال وهب بن منبه: ثم أمر صاحب جيشه، فيما يزعم أهل الكتاب، أن يقدم زوجها للمهالك»(٢) .. يعنى بذلك أوريا الحثيّ. وقال الحافظ ابن كثير ــ عند ما فسر الآيات الواردة فى حق داود ــ «ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم، حديث

---

(١)انظر: الكتاب المقدس ــ العهد القديم ــ المجلد الأول ــ سفر الملوك الثانى، الفصل الحادى عشر، مطبعة ــ المرسلين اليسوعيين . بيروت ١٨٨٢م

(٢)انظر: تفسير الطبرى: ج ٢٣ ص ٨ ، ط الحلبى.

يجب اتباعه»[1].

وقال القاضى عياض فى الشفاء« وأما قصة داود عليه الصلاة والسلام، فلا يجب أن يُلتفت إلى ما سطَّرَ فيها الإخباريون ، عن أهل الكتاب الذين بَدلُّوا وغيروا ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد فى حديث صحيح»[2].

وقال البرهان البقاعى فى تفسيره، ما نصه:

«وتلك القصة وأمثالها، من كذب اليهود».

ثم قال:« وأخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمّدون ذلك فى حق السيد داود عليه السلام، لأن عيسى عليه السلام من ذريته، ليجدوا سبيلًا إلى الطعن فيه»[3].

***

ويمكن أن نلخص الشُّبه المتعلقة بهذا الموضوع فيما يلى:

١ ــ ما ورد من الآثار التاريخية، فى كتب أهل الكتاب، أو غيرها من المصادر ، وتذكر هذه الآثار،، أن داود (عليه السلام)، كان له تسع وتسعون امرأة، وأنه رأى زوجة أُوريا الحثىّ، فرغب فى ضمهّا إليه وعمل على ذلك، فأكمل بها المائة.

٢ ــ أن الله تعالي أشار إلى هذه القصة فى القرآن الكريم، فقال سبحانه:«وهَلْ أَتَاكَ نَبأُ الخَصْمِ إذْ تَسَورَّوا المحْرَابَ إذْ دخلوا عَلَى داودَ فَفَزِعَ مِنْهُم قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغَى بعضنُا عَلَى بَعْضٍ فاحْكُم بيننا بالْحقِّ ولا تُشْطِطْ واهْدنا إلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إنَّ هذا أَخِى لَهُ تِسْعٌ

(١)انظر: تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١

(٢)انظر: الشفاج ٤ ص ١٩٢

(٣)انظر: تفسير البقاعى. النسخة المخطوطة فى مكتبة الأزهر بالقاهرة، ج ٥ ورقة ٤٣٤، الرقم الخصوصى ٥٩٠.

وتِسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيها وعَزَّنِي فِي الخِطَابِ، قال: لَقَدْ ظَلَمكَ بسؤالِ نَعْجَتِكِ إلى نِعَاجِهِ، وإنَّ كَثيراً مِنَ الخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ، إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَلِيلٌ ما هُمْ، وظَنَّ داودُ أنَّماَ فَتَنَّاهُ فاستَغْفَرَ رَبَّه وخَرَّ رَاكِعاً وأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، وإنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَىٰ وحُسْنَ مَآبٍ ، ياداودُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرْضِ فاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بالحقِّ ولا تَتبعِ الهوىٰ فَيُضِلَّكَ عن سَبيلِ اللهِ، إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الحِسابِ.» (١) .

ويَدَّعِي مثيرو هذه الشُّبه، أن فى هذه الآيات، تعريضاً بداود(عليه السلام)، إذْ جاءه مَلَكان في صورة خَصمين ، بَغَى أحدهما على الآخر، وأن المراد بالنِّعاج فى الآيات، نساء داود(ﷺ)، والمراد بالنعجة الواحدة، زوجة أوريا؛ ويستدلُّونَ على هذا بهذه الآيات ، فيقولون : إن الله تعالى صرَّح بأن داود(ﷺ)، تعرض للفتنة« وظَنَّ دَاوُدُ أنَّما فَتَنَّاهُ» ؛ ولهذا استغفر ربَّه، والاستغفار يكون بعد الخطيئة، كما نهاه الله عن اتباع الهوى. وغير ذلك من الشُّبَه التى تُثار فى هذا المقام، فى حق نبى الله داود(ﷺ).

ونلخص الإجابة عن هذه الشُّبَه ، فيما يلى:

---

١ ــ ماورد فى هذا الموضوع من الأخبار مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فى هذا حديث عن رسول الله(ﷺ)، يجب إتباعه، كما صرّح بذلك الحافظ ابن كثير، وغيره من المحققين، وقد تتبعتُ الأسانيد التى أوردها ابن جرير الطبرى ، وغيره فى هذه القصة، فوجدت جميع الأسانيد مملوءةً بالضعفاء والمتروكين ، وكلها أخبار موقوفة،

---

(١)الآيات من ٢١ ــ ٢٦من سورة ص .

أو مقطوعة، أو مضطربة، ولم يرفع منه إلى النبى(ﷺ)، سوى حديث مروىّ، عن انس بن مالك(رضي الله عنه أنه سمع النبى(ﷺ) يقول: «إن داود النبى ـــ عليه السلام ـــ حين نظر إلى المرأة ، همَّ بها ؛ قطع على بنى إسرائيل بعثاً، وأوصى صاحب البعث ،فقال : إذا حضر العدوّ، قرِّب فلاناً وسمَّاه.

قال: فقرَّ به بين يدى التابوت ـــ قال : وكان ذلك التابوت، فى ذلك الزمان يُسْتَنْصر به، فمن قُدِّمَ بين يَدَى التابوت ، لم يرجع حتى يُقتل، أو ينهزم عنه الجيش، الذى يقاتله، فَقُدِّمَ فَقُتِلَ زوج المرأة ، ونزل المَلَكَانِ على داود فقصَّا عليه القصة» [1].

وقد وجد فى هذا الحديث ابن لَهِيعَةَ، وهو ضعيف [2] .

ويزيد الرقاشي، وهو ضعيف أيضاً؛ قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده حديث أنس السابق ـــ «لايصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشى ، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف عند الأئمة» [3] .

وبالجملة: فإن هذه الأخبار لا تصح أن تكون أساساً للحكم، بصدور مثل تلك المخالفات من نبى الله داود(ﷺ)، وقد روُىَ عن سعيد بن المسيب، أن علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه)، قال: من حدّثكم بحديث داود على مايرويه القصّاص جلدته مائة وستين، وهو حدُّ الفِرية على الأنبياء كما روى : أن القصة ذُكرت فى مجلس عمر ابن عبد العزيز(رضى الله عنه)، وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدِّثَ به وقال:

---

(١)الجامع لأحكام القرآن للقرطبى(ج ١٥ ص ١٦٧)، ونوادر الأصول للحكيم الترمذى، ص ١٨٦ ط دار صادر ـــ بيروت.

(٢)انظر: تهذيب التهذيب(ج ٥ ص ٣٧٤، وما بعدها).

(٣)انظر : تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١

إن كانت القصة على ما فى كتاب الله، فما ينبغى أن يلتمس خلافها، وأعظم أن يقال: غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرتَ وكَفَّ الله عنها سَتْراً على نبيه، فما ينبغى إظهارها عليه، فقال عمر: «لسماعى هذا الكلام، أحبّ إلىَّ مما طلعت عليه الشمس» [1].

٢ ــ ما ذكروه فى الآيات من الشبه غير مُسَلَّم به ، للأمور التالية:

أ ــ أن القصة ذكرت أن داود (عليه السلام) عمل على قتل أوريا، ليتزوج امرأته، والدخول فى دم أُوريا أعظم من التزوج بامرأته، فكيف ترك الله سبحانه الذنب الأعظم، وهو القتل، وعاتبه على الأخف؟!

ب ــ أن السورة من أولها إلى آخرها، فى مُحاجّة منكرى النبوة، فكيف يلائمها القدح فى بعض أكابر الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، بهذا الفسق القبيح [2].

ج ــ أن الله سبحانه، وصف داود(عليه السلام) ، فى ابتداء القصة بأوصاف حميدة، فقال تعالى:«... واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذا الأيْدِ إنَّهُ أَوَّابٌ، إنَّا سخَّرنا الجبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِىّ والإشْرَاقِ، والطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ، وَشَدَدْنا مُلكَهُ وآتيناهُ الحِكمَةَ وفَصْلَ الخِطابِ» [3].

وذكر هذه الأوصاف الحميدة، لايتناسب مع ما ذكروه فى القصة، فإنه يلزم من ذلك، أن يكون مساق الكلام، كمن يقول: فلان عظيم الدرجة فى الدين، قوىّ الطاعة لرب العالمين يقتل ويزنى، ويظلم الناس!!

ومن هذه الأوصاف ، قوله تعالى:« ذَا الأيْدِ».

والأَيْد: القوة، ولا شَكَّ أن المراد منه: القوة فى الدين، لأن القوة فى غير الدين، كانت موجودة فى الملوك الكفّار، وما استحقوا بها مدحاً.

---

(١)انظر : تفسير الرازى، ج ٧ ص ١٢٦ والكشاف ج ٤ ص ٦٢

(٢)انظر عصمة الأنبياء، للرازى، ص ٧٦ (٣)الآيات من ١٧ ــ ٢٠ سورة ص .

ومن الأوصاف الحميدة، قوله تعالى« وآتيْنَاهُ الحِكْمَةَ».

والحكمة: اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملاً. فكيف يتناسب هذا، مع مزاحمته لأصحابه وأحبابه، فى زوجاتهم؟!!

أما تعرّض داود(عليه السلام) للفتنة، وهى الابتلاء والاختبار، فإنه لا يلزم من ذلك وقوعه فى المعصية، وهذا يشبه قصة جريج العابد التى رواها البخارى ومسلم والإمام أحمد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله(ﷺ)،« لم يتكلم فى المهد إلَّا ثلاثة: عيسى بن مريم (عليهما السلام)، وصاحب جُرَيج، وكان جُرَيج رجلًا عابداً ، فاتخذ صومعة، فكان فيها فأتته أمه ، وهو يصلى، فقالت: ياجُرَيج ، فقال اللهم أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فقالت ــ بعد ثالث يوم فى ثالث مرة ــ اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر فى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جُرَيجاً وعبادته، وكان امرأةٌ بغيٌّ يتمثل بها، فقالت: إن شئتم لأفتننَّه ،فتعرضت له ، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيا، كان يأوى إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت ، قالت : هو من جُرَيج ، فأتوا به فأنزلوه من صومعته وهدموها، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟. قالوا: زنيت بهذه البَغيّ ، فولدت منك، فقال : أين الصبىّ؟ فجاءوا به، فقال: دعونى حتى أصلى، فصلّى، فلما انصرف، أُتىَ بالصبى، فطعنه فى بطنه وقال : ياغلام، من أبوكَ؟ فقال : فلانٌ الراعى فأقبلوا على جُرَيج يُقَبِّلُونه، ويتمسَّحُون به، وقالوا: نبنى صومعتك من ذهب قال: لا . أعيدوها من لَبِنٍ كما كانت ففعلوا .. الخ..» (١)

هكذا فتن جُرَيج، ولم يرتكب محظوراً ، سوى أنه تشاغل عن أمه بعبادته، فكذلك داود(عليه السلام) لم يرتكب محظوراً،عندما تعرض للابتلاء والاختبار، سوى أنه وَزَّع وقته على عبادة ربه، والقضاء بين خلقه،

---

(١)انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٢٥٤.

واستمرَّ على هذه الحال، وفى ذات يوم تشاجر خصمان واستحكم بينهما النزاع ، فلجآ إلى داود(عليه السلام)،للفصل بينهما بالحق، واتفق أن كان ذلك اليوم، يوم خَلْوَةٍ وعبادة، فحاولا الدخول عليه من الباب، فلم يتمكنا ، فتسلقا عليه السور، وهبطا عليه منه، فارتاع داود(عليه السلام) وظن بهما الظنون ، فطمأناه، وفى هذا الجو الرهيب، بدأ أحدهما ، يعرض قضيته، ويقص قصته، فقال: إن هذا أخى فى الدين، له تسع وتسعون نعجةً ، ولى نعجة واحدة، طمع فيها وطلب منى أن يضمها إلى نعاجه، وجادلنى ، فغلبنى فى المطالبة، بقوة بيانه وفصاحة لسانه، وبدأ داود(عليه السلام) بالحكم، ولم ينتظر كلام الخصم الآخر، فقال :»لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ». ثم لم يلبث أن عاد داود (عليه السلام) إلى أناته، فأدرك أنه كان عليه أن يفتح بابه للخصوم، ليحكم بينهم بالحق، حتى لا يشتطّوا فى سلوكهم. لقد أغلق داود(عليه السلام) بابه، ولزم الخلوة والعبادة، فاضطر الخصوم إلى أن يتسلّقوا عليه المحراب، ففزع منهم. وفى ساعة الفزع، سمع لأحدهم، ثم حكم له قبل أن يسمع كلام الآخر.

إنها فتنة وابتلاء، لقد كانت الخلوة عن الناس فى عبادة الله تعالى، محبّبة إلى نفس داود (عليه السلام) ، يهدأ فيها ويستريح، فكان له فيها هوى ورغبة، فنهاه الله تعالى عن ذلك بقوله:« ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ.». ذلك أن وقت الحكام والملوك ليس لهم، بل هو لرعاياهم، ليحكموا بينهم بالعدل، ولهذا قال الله تعالى:« يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ..» الآية.

ومن هنا أدرك داود (عليه السلام) ما كان ينبغى له أن يفعله،«فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب».

ولقد زكّاه الله تعالى، فقال جل شأنه:« وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ».

هذا هو الذى ترشد إليه آيات القرآن الكريم، فأما تحريف كلام الله عن مواضعه، والخروج به عن معناه العربى المبين، إلى تأويلات بعيدة، فتلك مصادمة للحقائق العلمية، ومعارضة للنصوص، لا يمكن قبولها.

قال الإمام أبو محمد ابن حزم ــ بعد أن ساق الآيات السابقة فى شأن داود عليه السلام ــ :«وهذا قول صادق صحيح، لايدل على شئ مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولّدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصم، قوماً من بنى آدم بلا شك مختصمين فى نعاج من الغنم، على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر، على نص الآية، ومن قال: إنهم ملائكة مُعَرِّضين بأمر النساء، فقد كذب على الله، وقال على الله ما لم يقل، وزاد فى القرآن ما ليس فيه، وأقر على نفسه الخبيثة، أنه كَذَّبَ الله والملائكة، لأن الله تعالى يقول:«وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ». فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بَغَى بعضهما على بعض ، ولا كان قط لأحدهم تسع وتسعون نعجة ، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال: أكفلنيها، فاعجبوا لما يُقْحِمُ فيه أهل الباطل أنفسهم، نعوذ بالله من الخذلان»[1].

والغريب أن معظم المفسرين، نقل كثيراً من الأخبار الإسرائيلية دون تمحيص، وربما نشأ الخطأ من قبول بعض الصحابة والتابعين لهذه الأخبار، بغية الاطلاع على أخبار أهل الكتاب، لأن الإنسان بطبعه توّاق إلى معرفة أخبار الماضين واستقصاء قصصهم، لاسيما بعد أن أَذِنَ النبى(ﷺ) بالتحديث عن بنى إسرائيل، حيث قال (ﷺ) :« حَدِّثوا عن بنى إسرائيلَ ولا حرج.»[2].

(١)الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٤ ص ١٨ ط التمدن.

(٢)انظر صفحة ١١٨ من هذا الكتاب.

ويعرض العلامة ابن خلدون فِي مقدمته تحليلاً ، لانتشار هذه الأخبار الإسرائيلية، فيقول:« إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البَدَاوَة والأُمِّيَّة، وإذا تشوَّقوا إلى معرفة شئ مما تتشوَّق إليه النفوس البشرية فِي أسباب المكونات وبَدْء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين هم بين العرب يومئذٍ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك، إلّا ما عرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم ، مما لا تعلّق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلون، لكنها تُلقيت بالقبول، لما كانوا عليه من المقامات فِي الدين ، والملة.» (١)

وبالجملة: فإنه يجب أن تصان كرامة الأنبياء عن اللغو الذى لا خير فيه، وأن تبرأ ساحاتهم، مما يتناقله الإخباريون على مرّ العصور، ونكتفى بالقدر الذى دلت عليه نصوص القرآن الكريم، والسنة الصحيحة المطهرة.

وبعد: فقد بذلت فى هذا البحث جهداً متواضعاً، أرجو أن يكون بداية لبحوث أخرى، تعالج ما وقع فيه المفسرون من هفوات، وما أثاره المستشرقون من شُبَه، وما تقدموا به من مطاعن موجهة إلى الإسلام.

وفيما يلى نوجز النتائج التالية:

١ ـــ اتضح لنا من خلال هذه الدراسة، لزواجِ النبى(ﷺ) بزينب بنت جحش، أن بواعث هذا الزواج، كانت حكماً تشريعية، أرادها الله تعالى، ووجه إليها نبيّه(ﷺ)، ولهذا تولى الله تعالى هذا الزواجِ، من

(١)مقدمة ابن خلدون ص ٧٨٦

فوق سبع سموات، كما قال تعالى« فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْنا كَهَا».

ولم يسبق هذا الزواجَ ، أى ميل قلبى نشأ عن رؤية النبى (ﷺ) لزينب ، وهى فى عصمة زيد، كما أثاره القصاصون، وتناقله الرواة جيلاً بعد جيل.

٢ ـــ أن الأخبار الإسرائيلية، قد تسربت إلى كتب التفسير والسِّير، ونتج عنها مخاطر جسيمة أحدثت بلبلة فى الفكر الإسلامى الصحيح، واتَّخذ أعداء الإسلام منها أسلحة للطعن فى دين الإسلام، من واقع مصادره، وعن طريق أبنائه.

وطريقة الخلاص من ذلك أن تنشط الحركة الإسلامية الواعية، وتقوم نخبة ممتازة، من كبار علماء المسلمين بتتبع تلك الآثار فى مظانِّها ولا سيما ما يتعلق بالعقائد ، ثم يجرى التنبيه عليها فى أماكنها بأنها أخبار إسرائيلية، لايعتمد عليها فى شئ.

وكل مصدر من مصادر التفسير أو السِّيَر، يجرى طبعه مستقبلاً، يجب أن يكون مشتملاً على تلك التنبيهات التى وضعها العلماء المتخصصون، وتلك مسئولية كبرى تقع على عاتق علماء الإسلام.

٣ ـــ أن الأئمة الأعلام ، كابن جرير الطبرى، وابن سعد، وغيرهم وإن كانوا أئمة كباراً فى العلم والمعرفة، إلّا أنهم تساهلوا فى نقل بعض الأخبار الإسرائيلية، ودوَّنوها فى كتبهم، ولم يحكموا على أسانيد تلك الروايات بالصحة أو الفساد، بل تركوا لغيرهم فرصة لتمحيص هذه الأخبار ونقدها، بمقتضى قواعد الجرح والتعديل ، وهذا لايقدح فى مكانتهم العلمية، لأنهم نقلوا هذه الأخبار حسب ما شاع عند بعض الإخباريين وأهل القصص فى زمانهم، وفرق بين نقل الخبر كما سمعه وبين اعتقاد صحته، وخطاؤهم الوحيد هو إدخال هذه الأخبار فى

كتبهم دون تمحيص خلافاً لما عرف عنهم من الدقة والتحقيق فى المجالات الأخرى.

٤ ـــ أن قصة داود (عليه السلام) مع زوجة أُوريا الحثّى، قصة خرافية ولّدها اليهود، وروّجها القصاصون والمغرضون، حتى أصبحت منتشرة فى المصادر التاريخية، ولم تسلم منها كتب التراث الإسلامى، الأمر الذى جعل كثيراً من أبناء الإسلام، يقرؤن هذه القصة، على أنها حقيقة مُسلّمة . وفى هذا خطر كبير، وتشويه للحقائق التاريخية، التى تدل على عصمة الأنبياء وطهارة نفوسهم وعلو مقاماتهم.

وقد اتضح من خلال هذا البحث، أن الآيات الكريمة والسنة الصحيحة، لاتدل على شئ من هذه المفتريات الموجهة إلى داود(عليه السلام).

هذا، وقد بذلت فى هذا البحث جهداً متواضعاً حاولت فيه الوصول إلى الحقيقة، وأرجو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، فهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف
د/ زاهر بن عواض الألمعى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض

المراجع

أولا ـــ كتب التفسير وعلوم القرآن

١ ـــ تفسير الطبرى . ط مصطفى البابى الحلبى ١٣٧٣هـ.

٢ ـــ الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى . ط دار الكتب المصرية.

٣ ـــ تفسير الفخر الرازى. ط عبد الرحمن محمد بالصنادقية القاهرة.

٤ ـــ تفسير الألوسى.ط إدارة الطباعة المنيرية القاهرة.

٥ ـــ زاد المسير لابن الجوزى. ط المكتب الإسلامى دمشق.

٦ ـــ محاسن التأويل للقاسمى. ط عيسى البابى الحلبى القاهرة.

٧ ـــ الكشاف للزمخشرى. ط التجارية بالقاهرة.

٨ ـــ تفسير الحافظ ابن كثير.

٩ ـــ تفسير البغوى.

١٠ـــ تفسير الخازن.

١١ـــ فى ظلال القرآن . سيد قطب.

١٢ـــ أضواء البيان للشنقيطى . ط المدنى بالقاهرة.

١٣ـــ الجواهر الحسان فى تفسير القرآن . عبد الرحمن الثعالبى . ط الجزائر ١٣٢٥هـ.

١٤ـــ تفسير البقاعى. مخطوط فى مكتبة الأزهر.

١٥ـــ أحكام القرآن لابن العربى. ط عيسى البابى الحلبى.

١٦ـــ تفسير سورة الفاتحة . محمد عبده.

١٧ـــ طبقات المفسرين للداودى، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

١٨ـــ مدخل إلى القرآن الكريم. الدكتور محمد عبد الله دراز . ط دار البيان بالكويت.

ثانيا ـــ الحديث وعلومه

١٩ـــ صحيح البخارى.
٢٠ـــ صحيح مسلم.
٢١ـــ سنن الترمذى.
٢٢ـــ مسند الإمام أحمد . ط الحلبى بالقاهرة.
٢٣ـــ نوادر الأصول للحكيم الترمذى . تصوير دار صادر ببيروت عن الطبعة الأولى.
٢٤ـــ فتح البارى لابن حجر. ط السلفية بالقاهرة، ودار المعرفة ببيروت.
٢٥ـــ فيض القدير للمناوى . ط المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة.
٢٦ـــ تهذيب التهذيب لابن حجر. ط الهند.
٢٧ـــ تقريب التهذيب لابن حجر، نشر النمنكانى بالمدينة المنورة.
٢٨ـــ ميزان الاعتدال للذهبى. ط عيسى البابى الحلبى.
٢٩ـــ منهج السنة فى الزواج، الدكتور محمد الأحمدى أبو النور، ط دار النصر للطباعة القاهرة.

ثالثاً ـــ كتب السير والتاريخ

٣٠ـــ تاريخ الطبرى.
٣١ـــ الطبقات الكبرى لابن سعد، ط دار صادر ببيروت.
٣٢ـــ البداية والنهاية لابن كثير.ط مكتبة المعارف. بيروت ١٩٦٦
٣٣ـــ الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة . المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد . القاهرة ١٩٥٨م.
٣٤ـــ السيرة النبوية لابن هشام. طبع مصطفى البابى الحلبى. القاهرة.
٣٥ـــ السيرة النبوية لابن كثير . ط عيسى البابى الحلبى.

٣٦ــ الروض الأنف للسهيلى. ط الأول بالجمالية القاهرة.
٣٧ــ حلية الأولياء،لأبى نعيم . ط السعادة بالقاهرة . مكتبة الخانجى.
٣٨ــ السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين، لمحب الدين الطبرى .ط حلب.
٣٩ــ مقدمة ابن خلدون.
٤٠ــ زاد المعاد لابن قيم الجوزية . ط أنصار السنة المحمدية بالقاهرة.
٤١ــ فقه السيرة. محمد الغزالى . ط السعادة بالقاهرة١٣٨٤هـ
٤٢ــ الشفا للقاضى عياض.
٤٣ــ محمد رسول الله . محمد رضا .ط دار الكتب العلمية. بيروت.
٤٤ــ حضارة العرب. غوستاف لوبون. ترجمة عادل زعيتر. عيسى الحلبى.
٤٥ــ حياة محمد. إميل درمنغم.ط عيسى البابى الحلبى القاهرة.
٤٦ــ محمد فى المدينة. مونتجومرى وات ترجمة شعبان بركات.
٤٧ــ تراث الإسلام. تأليف جمهرة من المستشرقين . ط بيروت.

رابعاً ــ مراجع إسلامية متنوعة

٤٨ ــ نساء النبى بنت الشاطئ الدكتورة عائشة عبد الرحمن.
٤٩ــ الجواب الكافى. لابن قيم الجوزية . ط أنصار السنة المحمدية . القاهرة.
٥٠ــ عصمة الأنبياء للرازى، ط ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية التى يصدرها محمد السمان.

٥١ـــ الفصل فى الملل والنحل لابن حزم . ط التمدن ١٣٢١ه.
القاهرة.

٥٢ـــ نداء إلى الجنس اللطيف. محمد رشيد رضا. ط المكتب الإسلامى بيروت.

٥٣ـــ كبرى اليقينيات . سعيد رمضان البوطى.

٥٤ـــ لماذا عدد النبى زوجاته. الدكتور أحمد الحوفى.

٥٥ـــ تعدد الزوجات فى الإسلام .عبد الله علوان.

٥٦ـــ تعدد زوجات الرسول. محمد على الصابونى.

٥٧ـــ الكتاب المقدس(العهد القديم).

٥٨ـــ مجلة لواء الإسلام ـــ السنة(٥)، العدد(٨)، مقال لأبى زهرة بعنوان. مناهج التفسير.

خامساً ـــ فى اللغة

٥٩ـــ القاموس المحيط للفيروزابادى.

٦٠ـــ النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ط عيسى البابى الحلبى.

سادسا ـــ فى البلدان

٦١ـــ معجم البلدان. ياقوت الحموى.

فهرس الموضوعات

صاحب الكتاب

- ولد بمنطقة رجال ألمع من المملكة العربية السعودية سنة ١٣٥٤هـ.
- التحق بالخدمة العسكرية بمنطقة جيزان عام ١٣٧٠هـ ودرس على بعض أشياخها فى أوقات فراغه.
- استقال من الجندية عام ١٣٧٦هـ ليتفرغ للدراسة.
- انتظم بمعهد شقراء العلمى عام ١٣٧٧هـ وتخرج منه ملتحقا بكلية الشريعة فى الرياض.
- فى سنة ١٣٨٣هـ وقبل تخرجه من الكلية انتدب للتدريس بمعهد أبها العلمى.
- رشح مديراً لمعهد نجران العلمى عام ١٣٨٥هـ.
- حصل على الشهادة الجامعية [الليسانس] من كلية الشريعة بالرياض عام ١٣٨٦هـ.
- انتسب للدراسات العليا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر وحصل على الماجستير فى التفسير وعلوم القرآن عام ١٣٨٩هـ.
- انتقل إلى كلية الشريعة مدرساً عام ١٣٩١ ــ ١٣٩٢هـ.
- حصل على الدكتوراه فى التفسير وعلوم القرآن من جامعة الأزهر، وموضوع رسالته [مناهج الجدل فى القرآن الكريم] عام ١٣٩٣هـ.
- عمل عميداً لشئون المكتبات بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية.
- صدر له المؤلفات التالية:

١ ــ الألمعيات (ديوان شعر).
٢ ــ مع المفسرين والمستشرقين فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب.
٣ ــ مناهج الجدل فى القرآن الكريم.
٤ ــ تحقيق كتاب استخراج الجدال من القرآن لابن الحنبلى.
٥ ــ على درب الجهاد (ديوان شعر).
٦ ــ رحلة الثلاثين عاماً ، سيرة ذاتية.

له مؤلفات تحت الاعداد والطبع منها:ــ

١ ــ مدارس التفسير فى عهد الصحابة والتابعين وأشهر رجالها.
٢ ــ أصحاب الأخدود فى ضوء القرآن والسنة والتاريخ.

- له اهتمامات بالدراسات الإسلامية والأدبية.
- ساهم فى كثير من المؤتمرات داخل المملكة وخارجها.
- القى عدداً من المحاضرات والأمسيات الشعرية.